

تصدير

تحدث التصدير السابق - فيما نتصور - عن علة العلل في المجتمع العربي المعاصر ؛ فبالإضافة الى التفكك السياسى والعائلى - ومن ثمة الانشطار في التربة والهوية -بالإضافة الى كل ذلك هنالك التفكك الذهني وانعدام الجذر المشترك المؤسس للحد الأدنى من الجامع . هذا الذى نسميه الوطن العربى . . هذا الوطن الفسيفساء فى واقع السياسة والسيادة . ولو صدقنا مع أنفسنا لقلنا : ان المميز الجامع هو رداء المداجاة والتظاهر بعكس ما فى الباطن ، وادعاء التشبث بغير ما نؤمن . . . اننا نكرر الشعار ونعمل ضده فى نفس الوقت . . واننا نعيد التحذير من الفرقة لكننا نعمن فى التبعاعد . . واذا صدقنا مع أنفسنا - أيضا - قلنا ان كل الدعاة فى مختلف المجالات متساوون فى العيب الجامع ، والعلة الشاملة .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ان التبادل فى تسليط المسؤولية هو فى واقع الامر هروب من تحمل المسؤولية . . هو جبن أمام المواجهة . . هو التغطى الكشاف ، والتحجب الفضح ، واذا كان الجدل يدور حول مسؤولية الحاكم ومسؤولية المفكر والكاتب ، وأن كل واحد من الشقين يسلط التهمة على الآخر فان ايا منهما اذا حصر جدله فى موقف مواجهه ناسيا مسؤوليته يكون نظره احوال وتشفع له الاشباح فلا يبصر الصحة ، ولا يحصر الضبط .

وهذه خارطة الوطن العربى مشحونة بتبادل التهم فى مجالات ووسائل حتى خارج هذا الوطن . . نتراشق بالتهم دون أن ينظر كل منا الى موقفه هو نفسه بعيدا عن الانانية والانية نتراشق التهم وكلنا نتفصى من داء التنصل ، وعلة الفرار ، مع «التحلى» بخرافة الانفراد بالجانب الامثل . وانها لكثيرة وكثيرة

جدا أمثلة التناقض فى المواقف السياسية والفكرية .. تناقض من كل
الاطراف ، وفى كل الاتجاهات • وذلك هو خصمنا الاقوى وعدونا الخفى نقدمه
سلاحا فتاكاً لعدونا التقليدى وخصمنا المحسوس •

فعلا ان توفير حرية التعبير وتوفير المناخ الديمقراطى هما السبيل الامثل
لتشخيص الداء وتحمل المسؤولية • ولكن هل نحن فى مستوى التجاوب
والتفاعل الصحيح مع مدلول ما نطلب ونطالب به حتى نحصل على العلاج
المفقود ؟ ولكن من يعطى هذا العلاج ، ومن يتلقى ذلك العلاج ؟؟

اننا لو طرحنا السؤال واستجاب المجيبون عنه لحصلنا على خليط متناقض
متنافر جانب الرفض والسلب أبرز فيه ، واشد سيطرة وادل على واقع مـرـ
نصنعه نحن وننكره • لكنه هو منا وعلينا • والتاريخ لا يرحم •

قصص

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

اليوم الآخر

كنت منحدرًا مع الزقاق الضيق الذي يتفرع عنه بيتكم تمشي ببطء كأنما كنت مشدودًا إلى ساق نملة تراودك أفكار حزينة سوداء . حاولت أن تذهبها عنك . فدندنت بأغنية ، خرجت من شفطيك ، ولم تتفطن إلى أنها كتبت لغير المحزونين ، وكنت تلتفت إلى كل الجهات كأنما تبحث عن شيء معين ولكنك كنت تخشى الناس من حولك . حتى لا يستمعوا إلى ما تقول . رجل بالأمس فقط غيب أمه في التراب وأبدى من اللوعة ما أسال الدموع . نعم ماذا يقول عنك وعنهما من يسمعك يا تعيس وانت تغنى . وقبر أمك لم تجف تربته . بل لم يجف بعد ماء غسلها في البيت . وإن أرنين صوتها صدها في أذنيك .

« ... اذن عليك اللعنة . سأكون مهمومة بك حتى وإن كنت في الأخرى . خذ وانصرف » .

وتذهب مسرعا والنقود تقودك إلى معاطف القلق والشدوذ .

مات أبوك . أو هاجر . وتركك علققة في الأحشاء . ولم يكن لامك أمل سواك . ولقد تمردت على الطبيعة من يوم أن خرجت إلى الدنيا عن طريق عملية قيصرية . وكانوا يظنون بك الظنون . ويقولون : إنك لن تكون . وسوف تموت بأوهى الطرق .. حتى البكاء بإمكانه أن يميته .

رئكن الذي حدث أن مات ابن امرأة أخرى هي خالتك . وكل ما يحيط به طبيعي . بل وممتاز عن العادة . ومن يومها . دمغوك بالشؤم . وقالوا : إنك بدايته واليك النهاية . وها إنك تسير في الزقاق الضيق .

والذي ظن أغلب الناس أن أمك لا يمكنها أن تجتازها إلى المقابر . وقد سفهت تقولاتهم . واجتازت بسهولة غير معهودة في مثل هذه الأحوال . فكأنما فعلت ذلك عن قصد . ولعلك ذاهب بهذا الحزن المزوج بالغناء المرح إلى مكان ما في أطراف المدينة . يذهب إليه بعض الناس ليعتدوا على أنفسهم بدل الإساءة إلى

الآخرين ... وأبوك ! أبوك الذى يعرفه هذا الزقاق الضيق . هل مات حقا ؟
فالدفاتر الرسمية متجاهلة هذا الحادث . فلا البقاء ولا الهجرة كذلك باحت
بحياته . يكفيك انه مات على أفواه الناس .

وها إنك تودع هذا الزقاق الضيق . وإلى الأبد . فليس لك من حاجة تشدك
إليه بعد اليوم . حتى لودك هذا الحى على رؤوس أهليه . وسقطت عليه القنابل ؛
فتلك لعبة تعودها الناس من يوم أن لفظت « هيروشيما » أنفاسها . وإن للمدن
حق الموت بالطريقة التى تكون جاهزة . فقط يجب أن تكون مضمونة الدمار .
إذ ليس من حق أمك أن تحتكر وحدها الموت .

وعاودك الحنين إلى القتل . وأنت تتقبل التعازى ولما ينته حفار القبور من
تغيب جثمان أمك وتتفرس الوجوه ليختار أيها أجدر بالقتل وأولى من
غيره . ووضعت يدك تحت إبطك تتحسس مسدسك « تلك لعمري طريقة
بدائية أن أستعمله » - قلت فى نفسك - وقع كل هذا فى لحظة حزن وأنت
تذرف دموعا . ورجعت يدك برغمها تقع على المسدس . حين تقدم منك ذلك
الشيخ الوقور وضحك إليه قائلا :

- البركة فيما تبقى يا ولدى . والموت الهادئ المطمئن أصبح غاية ما يطمح
إليه الانسان .

لقد أصبحت سيد نفسك الآن . فلا ترهقها بما لا تقدر على حمله . لقد كانت
المرحومة أمك شجرة تستظل تحتها النفوس . وصنعت منك ما أنت عليه
الآن . فلا تنتبه لصوت الماضى وما يقول . ولا تتعامل معه . فلقد حملته معها
إلى تلك الحفرة حيث ترقد بعد عناء المشوار ... الاحياء وحدهم يجرون الماضى
وراءهم يا بنى ...

وأردت أن تقول شيئا . ولكنك لم تصل إلى الكلمات . فأومات برأسك .
وفهم أنك أردت مجاراته فحسب . بدليل أنه نظر إليك مليا . وولى وجهه .
وانصرف .

لقد كانت أمك تركن إلى رجال متعددى الوجوه . يقتربون إليها ... وغايات
الرجال محدودة فى مثل هذه الحالات . ولقد غابت عنك سحنهم . ولعل هذا

أحدهم . فقد كان فى لهجته شىء مريب . والآن فقط عرفت لماذا مات أبوك وهو حي .

وبماذا يعود عليك الغضب . وأنت الشرير الاوفر حظا فى الصفقة .

« ... إذن عليك اللعنة » - قالت ذلك أمك وهى تفتح خريطة . تناولك النقود - وقد قررت يومها علانية . أن تسلك طريق الهجرة . الذى سلك أبوك من قبل - أنا أعرف أنك ستكون عالية على نفسك . يوم أن أذهب بعيدا . ولا تمكننى العودة . وأنصحك أن تبقى وقتها حيث أنت . فحتى لو انحنيت من أجل أن تلتقط الحبز فى أرضك . فلن يكون ندمك غير نوع من الاختيار . ولو كان غير محبب . أنا أعرف انه ليس لك من غرض يجعلك تنزع نفسك من وطنك غير هذا . ولقد وفرت لك ما فيه الكفاية . ولكنى واثقة من أنه سوف يتلاشى . مثل كلامى تماما . تعلم أن خبز المغترب يصنع فى مخابز الاحتقار . حتى لو مددت اليه ذراعا تقطر عرقا .

ويومها ثرث فى وجهها بما فيه الكفاية وقلت تؤنبها :

« إنك حقا تجهلين اغراضى ! ولولاك لما تنفست هذا الهواء الذى يجعلنى عقيما . فالحبز الذى تغذيت به طول حياتى . ليس أفضل من ذلك الذى يصنع فى مخابز الاحتقار . »

وابتعدت لا تنظر الى وجهها . وقد فجرت فيه أطنان القنابل . وخرجت مسرعا ولعناتها تلاحقك كالشظايا . ولكنك نسيت وقعها على نغمات المسكوكات . فهى « سمفونية » الطمع . ونشيد الجشعين . وتحديثك نفسك . بأن هذا الزقاق الضيق أطول من رحلة الحياة نفسها . وترفع رأسك تتعرف عليه من جديد . ويقرضك الاسف . وانت تغادره لآخر مرة . وقلت فى نفسك ترثيه : لو مرت يوما ما فوق هذا الزقاق طائرات من طراز معلوم الصنع يقودها يهود حاقدون ، هل تترك من أهله من أعرفه ؟

أوه . لقد صرت تهذي فانت محموم . لا بد ان تمر على الطبيب . فالاجهاد أطاح بك . من جراء موت أمك .

يا عجباً - قلت فى نفسك - فحتى هذا الزقاق الضيق الحقير يحظى بشرف سقوط القنابل .

وان أهل الحي لينظرون اليك . فهلا حاولت أن تعرفهم بنفسك . فهم
 - لا شك - سيعرفونك . وهل تتنكر الطيور لاسرابها ، إنهم ينظرون اليك
 فعلا . وإن الشفقة تكاد تحجب عنهم الرؤيا بسبب من أمك . ولم تكن أمك
 فاجرة كما تتخيلها . ولكنها سلكت الى العيش طريقا يكاد يشبهه . بل يعسر
 التميز بينهما . ومن يوم أن مات رجل الحب فى قلبها . وها هى دفنت كلها فى
 التراب بما فيها واجتازت الزقاق الضيق . كما كانت تفعل بنفسها . تاركة
 للشامتين أكداس الحقد داخل نفوسهم . وفى المقدمة كانت زوجتك المحترمة ؛
 فقد كنت تترقب من شفيتها - على الاقل - كلمة عزاء . فاذا هى تموء كالهرة
 الغضبية .

- اسمع يا غبي . لقد كانت أمك كالحاجز الطبيعى بين الصحراء والبحر .
 وقد زال . فعليك ان تغير من نفسك . وتتعلم طباعا غير التى تعودت .
 وابحث لك عن الخبز فى وضوح النهار .

كانت أمك الجدار الذى لن أطوله . ولقد مرت . وبذلك تمتد سلطتى الى
 أبعد مما تنظر عينك ويصل صوتى . أما الابناء...

- أف - قلت لها - : وهل لى أبناء . قالت التى تنجبين .

- لقيط - قالت لك - ولو كنت غير كذلك ...

وقاطعتها متحديا :

- من يثبت أنهم لم يصهروك فى تلك المصانع .

- أخرج من بيتى . ولا حطمت رأسك ، بهذه الهراوة .

وامتدت يدك لتحسس اسدس . فلم تقع يدك على مقبضه هذه المرة . وقلت
 ترضه نفسك :

- إنها زوجتى . وان الازواج ليتنافسون السلطة .

ورفعت الهراوة فى وجهك صالحة :

- اخرج . والا سلطتها عليك .

وخرجت تبحث لنفسك عن مأوى وهو عسير .. حتى لو أقسم الرشيد أن لا تبیت فی مملكته الليلة ، فلن تعدم شبرا من الارض . ما يزال ملك الله فلم يتنازل عنه حتى الانبياء . ورفعت رأسك الى نافذة معلومة . في منعطف الزقاق . وإنها لتنتظرك .. لقد كانت من أصررت على الزواج منها بعد محن الحب وعذاباته . يومها تغادر المدرسة لآخر مرة . وأنت ترتجف من الانفعال ؛ لأنك هزمت على يد أستاذك . وكان يقوم بالتجربة في المخبر . ولما هم بانجازها . قلت محتجا . هذا علم قاتل . فهل تدربت على القتل ؟ ما جئنا الى ساحة العلم الا من أجل أن نسعى لاسعاد الانسان . أجل تجاربك . وتمهل قبل أن تفجرها حتى اخرج أنا من ممتلكتك . ورفعت رأسك الى نافذتها . وفي إشراق وجهها اخمدت لهيب غضبك . ومن يومها انتحر السلم فقد طاردوا حمامة السلام التي كنت تهوى .

وألقيت نظرة أخيرة على الزقاق الضيق . وقلت تودعه :

« مساكين سكان هذا الزقاق . فهم لا يدرون . ماذا يدبر لهم في المعابر . ولا ما يعدلهم في المصانع ... » .

ورفعت رأسك وقد انطفأ فانوس الزقاق الكهربائي ولاحت إشراقة الفجر . وقد ولد يوم آخر .

التابعي الأخضر

نقطة في 12 / 2 / 11982

الناصر التومي

انى حامل ... أتصدق هذا

لم تكثرت بالآلام ، ولعلها عدت ذلك ضنكا يزول حالما تركز الى الراحة ،
عجرت عن الانتصاب أكثر مما فعلت ، فارتمت على الفراش كقطعة من الخشب ،
وصدى صوت الطبيب يدوى فى مسمعها وكأنه يخرج من بشر عميقة أو من
واد سحيق .

... ما الذى فعلته بنفسك يا امرأة ... بعد عشر سنوات سنقف فى حالة
عجز كلى أما آلام الحازوق ...

كلمات مفككة ، ولكن معانيها ماحقة مفجرة لكل ما يروى ويخطر على بال ،
وتحليل السعادة المرتقبة الى سراب ملعون ، ما إن انسأب الطبيب فى سيل
العتاب المدمى للفؤاد حتى هرولت الى الخارج لا تلوى على شىء بالمرّة ، وقد
أجهشت بالبكاء فى جزع وبهذلة .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أجريت لها عملية بالعمود الفقرى تمت بنجاح ، وعليها ملازمة الفراش ولا
تبرحه أبدا لمدة ثلاثة أشهر كاملة لا تقوم أثناءها بأى عمل . رأت فى عيني
زوجها والمتساكنين الثلاثة ما كاد يذهب بصوابها . كان الضيق يعصر ملامحهم
ويضفى صفرة وارتباكاً .

كانت جوارحهما ترقص شوقاً وطرباً كلما أبصرا عن قرب أطفال الجيران
أو الاقارب ، وقد تتلاقى نظراتهما صدفة أمام هذا المشهد ، فيغضان البصر
وكان فى البريق حريقاً . وقد يتجاذبان أطراف الحديث فى هذا الشأن ، وفى
الغالب سرعان ما ينهيانه . لم يحاولا بالمرّة معرفة مكنى العقم حتى يتقاسما
الحرمان فلا ينتقص أحدهما الآخر لا شعورياً .

كانت تبتغى نفساً جديداً ، فانفرادها بزوجها فى بيت لا تغادره الا نادراً ،
جعلها دائمة الوجوم ، كثيرة الزفريات ، تنتقل بين حيطان وأثاث فى غير
معنى ، حتى اذا واجهتها صورتها المحنطة برطوبة البيت وسكينته ، عضت على

شفتين مضطربتين ، وتحركت أناملها فى ضغط قاس . وإذا غابت لحظات وفقدت الصورة المرأة بدت لها الحياة خالية من كل معنى ، وأمل ، وسعادة . وتأخذ نفسا طويلا يعقبه استنثار أطول ، وكأنها تفرغ صدرها من انفعالات مكبوتة . قد يؤمن المرء بدور القدر فى المنح والمنع فى كل ما يتعلق بمخلوقاته ولكن لا يعنى أن هذا المرء جلمود صخر عديم التأثير .

أصبحت فجأة أما لثلاثة تلاميذ ، اختطفتهم المعاهد الثانوية من بين أحضان أوليائهم بالقرية . وعملت هى على الالتحام واياهم فى علاقة روحية ، هى علاقة الأم بالأبناء . أفنت جهودها فى تلبية حاجياتهم ، أحست أن الحياة أصبح لها طعم آخر . لم تعد الحيطان باهتة ، كما لم تعد الرطوبة تلفت انتباه حاستي البصر والشم ، وانعدم الفراغ الموحش ، كل شئ بالبيت يرقص طربا لمرآها بعد ما كان أشكال جماد يبطش بالارواح المعذبة .

بدا عليها البشر ، فكساها حركة خفيفة رغم ما تبديه من عمل مرهق . وكان مؤشر الزوج يشير بأن خطأ كبيرا يحدث . ود لو نبهها الى هذا الانغماس المبالغ فيه فى شغل البيت . ولكنه يتراجع فى آخر لحظة ، حتى لا يقطع عليها فيض السعادة الذى أنساها المحافظة على عافيتها وحتى التزاماتها مع رفيق حياتها الاوحد . افتقد منها الاستقبال الباسم وهى فى زينتها المنزلية الجذابة . سلبها فيض السعادة الاحساس العميق برغبات الرفيق ، الذى بات التلميذ الرابع . عندما يمنح المرء جزءا مما يتمناه ، تضعف فى غمار السعادة الممنوحة جوانب هامة فى حياته .

آنس منها تفردا فى الرعاية . ابتساماتها تلامس أوتار نشوته فيحتضنها وهو يجتاز العتبة ، ويضمها اليه ضما بريئا ، ويحس بدفء بوجنتها ، وهى لصق جانب القلب الذى تتتابع دقاته وتزداد ، فيزداد بذلك ضمه ، وتذوب هى فى أنوثتها ، عجز أن يمنح السعادة لغيره ، بينما هو الأحق بها . ظهر عليه التبرم ، ولازم الصمت ، وافتقد الشهية الجنسية للمبرود الحاصل .

تفاعات حواسها ، وأسعفت بصحوة غير مكتملة ، فنسبة الصواب والخطأ فى تصرفاتها غير جلية لديها .

... تلهت بالعب من رحيق الفيض والفسحة في رحابه مع العمل لدوامه .
فكلما خلصت عملاً بحثت عن غيره في لهفة وبحركة غير عادية ، كأنها تبتغي
تدارك ما فاتها من سني الوحدة والوحشة . كان الانتشاء الغامر يفوق طاقتها ،
فبعثر ما رسب لديها من عنصر لها فاعلية مؤثرة ومتفاعلة . كانت شقية
بفقدانه ، أما وقد توجت به فلا قدرة لها حتى على التلؤؤ في تلبية رغبة تجددت
لها كامل حواسها .

احتضنته ، داعبت راحتيه وما تعرى من صدره . كانت عيناها لا تفارقان
محياء ، بينما كان يدير البصر عبر نواحي الغرفة . قالت وهي تتوسد ذراعه :

— لا أعرف ماذا طرأ لي ... إنني أذوب في خدمتكم جميعاً ... عندما أتذكر
أنني حبست عنك ابتسامتي ... أكاد أجن ...

يفص الرجل بلعابه . يحاول اظهار اللامبالاة . لكن عيني الزوجة تعانين
انقباض الرقبة . ان الرجل يعانى من كبت في إطلاق العبرات . قال وهو يدير
لها ظهره برفق :

ARCHIVE

— رفقا بي يا امرأة.com إننى أصغرهما لتصويرين .

تناقص وزنها . وبدا الشحوب على ملامحها . وغارت عيناها في محجريهما .
لا قدرة لها على التصدي لجبية العطاء . قد تشعر بين الحين والحين أن قواها
تخور نتيجة صراعها الدائب مع الزمن . تلك الساعة الرهيبة التي تذكرها بين
الفينة والآخرى بمواعيد عودة الزوج والتلاميذ الى المنزل وساعة خروجهم منه .
أصبحت فريسة سهلة للعلل الجسدية منها والنفسية . أصاب الجسد الوهن ،
وبات قاب قوسين أو أدنى من العجز الكامل ، وفقدت احتياطي الأعصاب ،
فباتت بين فكى الانهيار الذى يضخم الاحساس بالاشياء ويفقدها التوازن
العقلي .

كانت ملقاة على أرض الغرفة فى غيبوبة . وعندما فتحت عينيها بعد جهد
كانت تهذى ، وهى لا تميز بين الزوج وجهاز التلفزيون . كان من السهل
إنقاذها من الانهيار النفساني بملازمة الراحة التامة بالمستشفى مع العلاج .
ولكن ليس من السهل إنقاذها من الانهيار النفساني بملازمة الراحة التامة

بالمستشفى مع العلاج ، ولكن ليس من السهل علاج عمودها الفقري الذى يستوجب عملية جراحية مضمونة النجاح نسبيا .

لم يخف على الزوج - قبل الانهيار الكامل - أن حليته قد تسقط بين الفينة والاخرى بين مخالب الاسقام . كانت تذوى كما يذوى الفتيل ، بعد أن استهاكت كل ما لديها من قوة . همس فى أذنها همسا ، وزعق فيها زعقا بأنها تهدم عش الزوجية .

- .. لا أخفى عليك .. إنك مقدمة على اختيار عسير .. لا مفرا لك منه .. بعد اجراء العملية بأسبوع ستنتقلين الى دارك حيث تلازمين الفراش لمدة ثلاثة أشهر كاملة ... لا تقومى أثناءها بأى عمل ...

استقرت بمنزلها وعلى سريرها ، وهى تحملق فى كل ما يصل اليه بصرها . كل شئ لديها مسه التغيير ، وكأن الحيطان غير الحيطان والرطوبة غير الرطوبة والهوامت غير الهامات . لمساتها مفقودة بالمرة ، وكأنها غابت السنين الطوال مع أنه لم يتغير أى شئ . حاولوا اشعارها بقدرتهم على سد الفراغ لكن الفشل كان حليفهم ، فلم يكن يعينها ما يقومون به من أعمال بالمنزل ، كل ما يعينها لمساتها وبصماتها هى لا غير .

<http://Archivebeta.Sa1v1t.com>

عاد الزوج يوما ليجد سجينة الفراش قد تحركت كما تتحرك ربة الدار الصالحة ولم يمض على تاريخ العملية سوى شهر واحد ... أرغد وأزبد وصرخ وتوعد وسب ولعن وحسب أنه بذلك حسم الموقف .

التحق أحدهم بالاكاديمية العسكرية أرسل فى بعثة تدريب الى بلاد ما وراء البحار . أما الثانى فقد استقر باحدى القرى النائية بالجنوب للتدريس بمدرسة ابتدائية ، أما الثالث فقد أسرع أبواه بتزويجه إثر إن تحصل على وظيفة بوزارة الداخلية .

انفردت بزوجها بعد رحيلهم ، فهاها ما رأت من هزال بقوامه واحديداب بظهره وبياض صارخ بشعر رأسه ، وتكرمشات التجاعيد أكثر وضوحا بوجنتيه . انجلى الضباب وانسلخ السراب وصدمت بالهوة ... نظراتهما لا تلتقى الا صدفة ، فالوحدة التى ضمتها فجأة كانت موحشة كليله عاصفة

بساحل صخرى . تناسيا أن الطيور ستنتطلق يوما وتحلق بعيدا ، وتأخذ لها أعشاشا . كان يخامرهما هذا الحاطر ، ولم يتصارحا به حتى لا يعكرا الصفاء السائد قبل حدوث ما يكرهان ، وقد يسارعان بنفسه من مخيلتهما . اذا كانت أيام الشباب شحيحة بعطائها ، فأيام الشيخوخة لا شك ثقيلة كالموت البطيء . هالهما زرعهما للاوهام وحصدهما للسراب ، كما أفزعهما الصمت الرهيب الذى لم يألفاه من زمن بعيد ، كان احساسهما قويا بالوحشة . نفساهما لا تجدان للاطمئنان سبيلا ، ومشاعرهما هتكت بتمزق ينبض غصة فى الحلق وعبرات فى الجفون . قالت وهى تذرف الدمع :

– ترى هل تقرر عينانا بزياراتهم بين الحين والآخر ...؟

قال وهو يفيض من بصره :

– كل ما أعلمه يا امرأة أننا قبرنا ... وهل تطول زيارة القبور ...

تصخر منها القفا ، واشتدت آلامه ، فاستقلت على أرض الغرفة تكبت صرخة وهى تردد بصوت خافت :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhi.com

– آلام الكي ... آلام الكي ...

لم تكن تعنى ما تتفوه به ، بل رسمت الذاكرة على شفيتها كلمات العتاب فى غير قدرة على الرصانة والتماسك . كانت آلاما قاسمة للظهر . شلت فيها الليونة وبعثت على الهذيان .

اقتحم عليها الطبيب الذى أجرى لها العملية من عشر سنوات الغرفة ، يتبعه طابور من الاطباء المتربصين . ما إن التقى بصرها ببصره حتى أجهشت بالبكاء ، أما هو فلم ينبس ببنت شفة بل امتدت أنامله لتحسس مكان العلة ، وبرطانة يشرح لطلبته الحالة الصحية . كانت دقائق عصيبة وثقيلة . فاحصها جلمود صخر ، يجس فقرات القفا الواحدة بعد الاخرى وهو غير عابئ بأنفاسها اللاهثة الشاهقة ، ولا بهلعها من مصابها ، غير مستنجد بها لفك طلاس المرض وكأنه كان ينتظر مرور العشر سنوات بفارغ الصبر ، وما سيؤول عليه حالها . لذا لم ير فائدة من ذلك . طال الفحص ، وهى تقلب الى كل الجوانب ، وفجأة توقفت سماعته فى موضع بأسفل البطن ، وكف عن

– انى حامل ... انى حامل ... أتصدق هذا .

صعق الزوج وتوقف على بعد خطوات منها ، محملاً فيها وهو لا يكاد يصدق ما يسمع ، ولعله خالها سقطت من تحت تأثير أتهيار نفسانى ، ولم تنقطع الزوجة لحظة عن ترديد خبر حملها ، ولعلها وجدت فى الترديد سعادة ، وفى النطق حلاوة ، فأطلقت العنان لكامل جوارحها لتعب من فيض الانتشاء .

قال الطبيب وهو يلمس كتف الزوج :

– إن امرأتك حامل فصدقها ..

تقدم الزوج ما تبقى له من خطوات وهو أعجز من أن ينبس ببنت شفة ، وأردف الطبيب من جديد قائلاً :

– لا أخفى عليك حيرتنا ، لو أجريت لها العملية ، قد نفقد أثناءها الجنين ، وإذا تركنا الحالة على ما هى ، فإنها لن تصبر على الآلام المبرحة طيلة ستة أشهر أخرى ...

قالت :

– سأكتم الصرخات والانات ، سأدفن عذابى بداخلى حتى أرى فلذة كبدى ، وإذا قضيت نحبى بعدها فيكفينى من يحمل هويتنا ..

قال الزوج وهو يختنق بعبارات يخاف بروزها :

– لهفتى على صوت ساحر يملأ علينا البيت ويؤنسنا ، ونحن نجتاز عتبة الشيخوخة ، ولهفتى أكثر عليك ، أى أرض ستضمنى وأنا أفتقدك .

قالت وهى شبه حاملة :

– يقينا أن الذى زرع الحياة فى أرحام عقيمة وفاقة للعادة الشهرية ، لا يفعل ذلك عبثاً ..

ضغط بكلتا يديه على جانبى رأسه . ثم نهض لا شعوريا قائلاً :

– لو عرفت الغاية من خلق الذباب لأجبتك عن ذلك .

وغادر الغرفة لا يلوى شىء .

أشهر ستة وهى تحت رعاية طبية فائقة ، رفقة آلام حادة لا يمكن مجابهتها
أو الحد منها ، ولا أصيب الجنين ، وقد يدفن وحاملته ، وفجأة علا صراخها ،
فقيدت الى غرفة التوليد .

كانوا ثلاثة أطفال كالأقمار ، لم تصدق ما قيل لها ، وبهت الأب للخبر ،
وهى بين اليقظة والغفوة وبين التصديق والتكذيب ، أخذ الزوج يدها بين
يديه يبت فيها الارتياح ، وأصغى الى كلمات متقطعة المعانى :

... ثلاثة .. من يكفل الثلاثة .. من يربى الثلاثة .. هزها هزا خفيفا
وعندما فتحت عينين حمراوين دامتتين ، وأبصرت زوجها قبالتها ، مدت اليه
يدين مرتعشتين وبلامح الذى يجابه معاناة فوق الطاقة قالت :

– هل خلقوا ليتيتموا...؟

– اهدنى يا امرأة ، الامر ليس بأيدينا .

ما ان أبصرت ثلاثتهم حتى انشروحت أساريرها وابتسمت ، ورقصت
تجاعيد الزوج وشفتاه وهو يلثم جباههم وخدودهم ، وتناسيا فيما كانا
يتحاوران . قال الطبيب وهو يجالسهما :

– إن شاء الله سأحضر بدرى خنائهم وربما زفافهم أيضا ...

– كيف ذلك وظهري كقطعة من الخشب ، وأنا طريحة الفراش حتى أموت

– من قال هذا ؟

– ألم تقل هذا من عشر سنوات .

– لا أنكر ذلك ، وكنت مخطئا فى قراءة المستقبل ، ففي السنوات العشر
التي مرت تقدم الطب ، وأصبحنا قادرين على معالجة سقمك هذا بعملية جراحية
عادية . لكن لن نقدم عليها حتى نتحقق من نجاحها وتتوفر لنا الاسباب
وأهمها استرجاع قواك بعد العملية القيصرية التي أجبرنا عليها ...

عندما تركهما ، كانا قد شدا شدا الى الاطفال الثلاثة فى ابتسامة يشك
انطفأؤها بالمرّة ، لقد انسلخا كليا من عالم الالم والعجز والحرمان ...

الناصر التومي

– تونس –

ترجمة : ابو بكر العيادي

زيفكو سينفو (*)

ابنة العم « فروم »

ها ان العم فروم بقي وحيدا فقد قرر التنظيم أن يأخذ منه «إيتيا» ابنته - إذ خشى رجال الفرقة أن يستقر بقلب «إيتيا» الصغيرة تفكير فروم الغريب.

لا شك أن بالوادي رجالا أقوى وأشجع من العم فروم . ولكن لا أحد في كامل البسكفيليا (I) حظى بمثل ما يحظى به العم فروم من احترام لانه لم يتفوه بكذبة قط دون ريب ، كان يتكلم كما يفكر ولا يخشى أحدا ، كان الاول من بين أعضاء التنظيم الذي جرؤ على قدح الاجتماعات القدسية ، كان يقول دون خشية : « استقبـحها هذه الاجتماعات ، استقبـحها وأرمى بها حيث يجب ، لذلك كان الناس يحذرونه لان الفترة لم تكن سانحة للتعبير عن كل ما تجيش به النفس ، الوحيد الذي كان يستطيع أن يفعل ذلك ويفعله هو العم فروم ، ولكنه الآن وحيد . وصوته لا يكاد يسمع الا نادرا ، يبدو أنه يعيش في صمت منذ أيام ، أسابيع ، بل شهور ، بكل صمت يغادر منزله عند غروب الشمس وما يفتأ يتجول عبر البساتين . كان يبدو طويلا أسود شبـيها بالاشجار ، يهيم ساعات طويلة وسط البساتين .

كان ذلك في نهاية شهر فيفري ، قبل بداية الربيع الذي لم يبلغ القرية بعد ، هبت لفحات ريح الجنوب الحارة على البساتين فكنا نسمع مرورها الصاخب والمشتت ليلا نهارا ؛ فتجردت الاشجار من طبقات الجليد التي تكسوها وتضاعدت شعلات زرقاء صغيرة فبدأ لنا كان البساتين تزهر . ولكن لم يكن سوى وهم إذ إن الشعلات الصغيرة كانت تنفصل عن الاغصان

(*) ولد زيفكو سنة 1935 بمقدونيا اليوغسلافية .

من مؤلفاته مجموعتا قصص «بسكفيليا» و «بسكفيليا الجديدة» وروايتان

« الماء الكبير » و « الثلوج الفضية » ومسرحيات كثيرة .

(I) البسكفيليا مقاطعة خيالية جعلها الكاتب مسرحا لقصته .

كالشهب وترتمى ميتة على الارض ، فيهتز الثلج فى كل مكان لانفجارات وهاجة ، وتفتح الارض صدرها للربيع ، ربما لاجل ذلك كان فروم يأتى غالبا الى البساتين .

فى هذا الربيع بدأت حياة جديدة فى البسكفيليا ، فأزيلت السياجات الصغيرة وسقطت الاسوار ، وصار الوادى مشتركا ، واقتعلت الحواجز والحدود وولج أول جرار البساتين الصغيرة اوشاة ليحرثها ، كل شىء جماعى مشترك ، ولكن القدماء ، أجدادنا وآباءنا ، لم يحضروا هذا الربيع ، فهم لا يستطيعون أن يسمعوا بكاء الحباك الجاد ؟ غمغموا : « ليفعل الشباب ذلك إنه لهم ، أما نحن فقد عشنا زماننا » هكذا كانوا يتحدثون وفى الحفاء يشتمون التعاضد وخلفهم المغنون ، أما نحن فكنا نهدم السياجات بلا شفقة وننشد بصخب ملوحين بشعارات حماسية .

فى هذه الايام كان العم فروم يأتى أحيانا ناحيتنا ، وعندما يقترب لا أحد يجرؤ على الغناء أو ترديد شعار كأنما كنا نتمثل لامر كان يرقبنا بنظرات شرهة واضحة لا تقدر على مواجهتها ، فالنور المنبثق من عينيه يجعلنا نحني رؤوسنا برغبة فى الهروب والاختباء كمنذنين ويواصل النظر إلينا بعينيه الكاويتين ، ثم يأتينا صوته سائلا :

« أيها الشبان ، أين إيتيا ؟ » « أيها الشبان ، ماذا وقع لبنيتى ؟ » الى أين أرسلوها؟ ألا تنبئونى؟ ، وبدون أن ننبس بكلمة نواصل قلع أوتاد السياجات بعق فى الارض وأيدنا جامدة كأنما كانت أسيرة الثلج ، كان البرد يلسع عروقنا .

« أيها الشبان ! » أيها الشبان الطيبون ، هل ستتركوننى وحيدا كامل حياتى ؟ » .

لم ينطق أحد ، لم يرفع أحد رأسه ، حتى الرفيق « لako » بدأ ضائعا رغم أن ذلك ما كان ليقع فهو سكرتير ولكننا كنا جميعا عاقلين ، فصمتنا ، بقى العم فروم هكذا لحظات ولما لم يظفر بجواب انصرف بنفس الخطوات عبر البساتين محني الظهر ، وحيدا ، كان يمشى كأنما تحمله الريح ، تدحرجه .

ولكننا لا نعلم شيئاً عن « إيتيا » نحن أيضاً ، لقد جرى بها يوم طرد العم فروم من جميع التنظيمات ، لا بد أن الأمر كان كذلك ، لأن الناس وافقوا على كل شيء فسمح لهم بالعودة الى ديارهم ، حصل ذلك في المساء السابع من احتجاز الناس في المدرسة كانت وجوههم المرهقة التي حرمت لذة النوم تشبه الجذوة وعيونهم العكرة التي أصفرت تبدو وحشية ، لا أحد يفتح فمه ، لا أحد يتحرك من مكانه سبعة أيام ، وأثناء هذه الايام السبعة ، كان صوت رجل قاسي القلب يبدو عليه الارهاق هو أيضاً ، يسأل للمرة الالف وهو يتثأب بجلية :
« من يقبل التعاضد طوعاً ؟ »

★ ★ ★

الدخان يملأ القاعة شيئاً فشيئاً ورائحة واخزة تحرق عيون الناس ، ربما من أوراق الجوز التي كانوا يدخنونها ، في العتمة لم يعد أحد قادراً على التعرف على غيره ، كل ما يمكن رؤيته وجوه داكنة لرجال بشفاها ، جمرات جوز مرة ، كانوا يدخنون ولا يتكلمون كان الصمت عميقاً كما في جنازة ، من حين الى آخر ينبعث صرير بارد وفطيع من طاولة جلس اليها المسирون ، كان أحدهم ينظف مسدسه بعناية فائقة ، كان اليوم السابع يوم رأى العم فروم هذا الخسيس يمسك مسدساً ، لم يملك نفسه أكثر مما فعل ، فهو لا يستطيع أبداً أن يتمالك عن أشياء مماثلة ، فصار العم « فروم » الحقيقي ، من مكانه ، أكبر من أى وقت مضى ، وقال بصوته الحفيض الواضح :

« لا فائدة أيها الرفاق ، دعوا الناس يهتمون بشؤونهم والباقي يأتي بطبيعته » ، رفع الناس رؤوسهم ووافقوا بايماءة ، ولكن أصحاب الطاولة انتفضوا بسرعة وحزم .

قال « انطوني اشتالكو » سكرتير اللجنة الجهوية :

« ماذا يا فروم ؟ ماذا ؟ تقترح تشتيت التجمع ؟ هذا ما تريد أيها الرفيق ؟ »

قال فروم : « ليس هناك ما يشتت » وأظن أنه كان يبتسم لأن العم فروم كان يحب الضحك دائماً وهو يتكلم بهذه الكيفية . ليس هناك ما يشتت فنحن لم ننشئ بعد شيئاً « ولا نستطيع أن ننشئ أى شيء بالقوة ، لا نستطيع ، لأن الناس لا يرغبون » .

هكذا تكلم العم فروم وأضاف أيضا : « لا نستطيع أن نرغم الناس » ثم عاد إلى مكانه ، قال « انطوى اشتكالكو » بصرامة : « فروم » أتدرى ما تقول يا فروم ؟ إنها شتيمة فظيعة ، إنها خيانة ، إنها فرية ضد النظام الشعبى وضد حزبنا الموقر ، إنها خيانة يا فروم .

قام العم فروم من جديد . وبدون أن يحدث خطاه اتجه نحو من كانوا خلف الطاولة ، وقال بلهجة بدا عليها بعض التغيير :

« أنت ، أيها الرفيق « اشتالكو » أنت انطونى اشتالكو ، لا تتكلم معى بهذه الكيفية ، ذلك ما أقوله لك » .

لم يستطع الرفيق « اشتالكو » أن يتمالك ، غطت وجهه الاصفر ابتسامة ساخرة وانتفخ قليلا كسفرجلة وقال بلهجة تنضح استهزاء وهو يفتل شاربه الأجدب القصير :

– هل تريد أن نغفو عنك يا فروم ؟

– لا . ليس هناك ما يدعو إلى الغفو .

قال السكرتير وهو يدير وجهه للآخرين :

– أصبحت خائنا يا فروم ، صرت خائنا للشعب ، خنت الحزب ، خنت حزبنا فى عمله .

– لا تتكلم بهذه الكيفية ، ليس لك الحق فى أن تتكلم معى بهذه الكيفية .

قال العم فروم ذلك . ولنه كان يود أن يقول :

« وأنت أيها اللقيط اللعين « انطونى اشتالكو » أعرف جيدا ، أعرفك منذ « كلينويتس » أذكر جيدا يوم جرحت رجلك لتتلافى القتال ، كنا جميعا نعرف ذلك ، وكنا شهرنا بك لو لم يلق رفاق كثيرون حتفهم فى « كلينويتس » ، بينما بقيت فى ناحية ما من القرية أعرف كل ذلك ، كنت تقول : « حادث مؤسف » والدمع يترقرق فى عينيك ، أعرفك جيدا يا « انطونى اشتالكو » .

هكذا ، ما زال العم فروم يتذكر أقوال « اشتالكو » لتبرئة ساحته أمام الرفاق ولكنه لم يقلها . بل غمغم بصوت لا يكاد يسمع :

« لا تذكرني بالقتال يا «انطوني» لا تدنس حزبي » .

وهو يركز نظره على عيني السكرتير .

قال أنطوني بنفس الصوت المكتوم : « لقد خنته » ثم أخذ الصوت يعلو شيئا فشيئا والسكرتير يضغط على كل كلمة وهو يججلج : « أنت خنته ، دسته ، وسعياقبك كما يعاقب دائما كل من يمد يده عليه . سعياقبك بلا رحمة » .

اقترب العم فروم كثيرا من الطاولة وقال ، دون أن يفارق عيني السكرتير :
« لا يستطيع الحزب أن يعاقبني ، فهو يعرف أي رجل أنا ، أنت أيها الرفيق السكرتير تتكلم من عل » .

هكذا تكلم العم فروم وهو يقف أمامه منيعا في عظمته .

في نفس المساء طرد العم فروم من الحزب ومن كل التنظيمات وأخذت منه « إيتيا » آه لو رأيتم وجه العم فروم حين كان السرّتين يقرأ القرار لم يستطع أن يتمالك فصرخ :
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

« أيها الرجال ، أيها الرفاق ، الشيوعيون ، اقتلونني ، اسحقوني ولا تأخذوا مني أغلى ما أملك » .

جثم على القاعة صمت ثقيل ، صمت لعين وظل الناس خرسا كعجين أسود ، وعبثا بحث العم عن انظارهم وترقب أقوالهم . لم يرفع أحد رأيه ولم ينطق أحد بكلمة .

قال بصوت أخفض : « تكلموا أيها الرجال ، قولوا أي شيء ، تكلموا يا رفاقي . قولوا ماذا فعلت . ماذا في حياتي غير معركتنا و « إيتيا » .

قال « انطوني اشتالكو » :

« يجب أن تنصرف الآن يا فروم ، لم يعد هناك موجب للكلام ، نظام الحزب مقدس ، و « إيتيا » ليست ابنتك » .

قال العم فروم : « إنها لي ولو حاولتم أخذها فلن أسلمها لكم ، هاتوا إن أردتم كل المليشيا وكل السكرتيرين ، لا أسلمها ، إنها ابنتي » .

في الحقيقة « إيتيا » ليست ابنة فرم « ولكنها لا يمكن أن تكون ابنة شخص آخر ، فلا أحد لديها سواه ، عندما عاد من الحرب كان قد فقد زوجته وأطفاله وكل أفراد عائلته ، فعثر على « إيتيا » في العام الاول من الثورة حين كان العم فروم يقود الحرس الشعبي عندما وجدها على الثلج ، قال للناس : « ستكون ابنتي » ، وهذا صحيح ، بقيت « إيتيا » مع العم فروم وصارت ابنته ، ثم فارقتة وارسلت الى المدينة تزاول تعلمها فلم يعلم أحد شيئا عنها مدة طويلة .

وقد كنا ننساها لو لم يأت العم فروم الى البساتين هذا الربيع ويسألنا بلا انقطاع :

« أيها الشبان ، ماذا وقع لابنتي الصغيرة ، ألا تقولون لي أين توجد إيتياني ؟ » .

ازداد قدوم الربيع بسرعة وقوة ، إنه وقت الاستعدادات الكبرى الربيعية وقد اتممنا عملنا ، وكنا نكتب على الجدران بالطين الاحمر شعارات تذوب من فرط جمالها سعادة ، ولكن ذات صباح من هذا الربيع طليت كل شعارات موسم الزرع والتجمع باللون الازرق ، وبنفس اللون كتب في مكان : « فروم هو أبي » على جدران المنازل ، وعلى الدار العمومية .

كان الناس يروحون من حائط الى حائط ويقرؤون : « فروم هو أبي » وعندما وصلوا قرب المدرسة شاهدوا « إيتيا » لطيفة ورقيقة تقف على أصابع قدميها وتحاول أن تكتب أعلى ما يمكن : « فروم هو أبي » .

« إيتيا » ! « إيتيا » !

اهتزت لصوت الرفيق : « لاكو » ولم تلتفت اليه .

« الحسيس هو الذي علمك هذا » فالتفتت « إيتيا » الى السكرتير وهي ترفع وجهها الصغير المدور ، هذه الشيطانة الصغيرة لا تشبه في شيء العم فروم ولكنها بنفس اللهجة خاطبته :

- « لا ، لم يعلمنى ذلك أحد .. أنا أعرف أن فروم أبى .. هه فلتعلمه أيها الرفيق لأكو » .

بينما كانت تخاطبه غمرت وجهها تلك الابتسامة التى كانت دائما تعلقو محيا العم فروم ، وسمع من جديد صوت « إيتيا » المتصلب : « هو ذاك ، سألنى مع العم فروم ، ليعلم ذلك كل الناس » فيسرتجف كل كيانه الهش المرهق « سأظل طول حياتى معه وسأكون ابنته » .

وتتألق عيناها كشعاع شمس الصباح فتبدو « إيتيا » كأنها جزء من هذه الشمس التى تدوى فوق الوادى كناقوس عيد كبير .

قال الناس وهم ينظرون اليها : « جهنمية ، كأنها حقا لفروم تماما كفروم » الله يحفظها ، لون الشعارات الاحمر ولون « إيتيا » الازرق مخلوط هكذا على الحائط تحت شمس الصباح ، أنبتنا زهرة مجهولة ، قال القرويون فيما بينهم : إنها ربما زهرة تنبت خلال الاسوار بين الاشواك .

تأليف : زيفكو سينقو Archivebeta.Sakhrit.com

ترجمه : أبو بكر العيادي

رسائل الى مشرق الشمس

يا غريبا ،
يا غريبا ، تعودته حتى ألفته ،
وألفته حتى أمنت ،
وما كنت أدرك أنى أصل حد الادمان ،
فاتحكر أحلامي ، وهدر أوجاعى القديمة
يا غريبا
تصفعنى الشمس به كل نهار
ويقذفه الليل فى قرارة حلمى
وها هو ذا النهار يلقينى اليك .
كيف تسكن ليلي ونهارى ؟
وتحكم علي الاسوار ! ولا تدري !
يا غريبا ، فرض علي جنون حبه
ورغم ذلك ، آتية وأنا أشد قناع أخلاقى بشداد شك .
أطلق « صباح الخير ... أهلا » ،
وأبلع كل أشواقى ،
وأمسح كل آثار الاحلام ،
وأحرق كل المشاعر تحت القناع ، حتى تعالى الدخان .
وأبتسم ، بانخزال .
وأحدثك - يا غريبا - كعادتي عن كل شئ .
وأفصح السياسة والاحزاب ،
ولم تلمح بعض الدخان الصاعد من حريقى
ولم تمسك طيورى الخافقة نحوك .

رسالة عدد 2 : نداء

ترتعش السماعه فى يدي ،
أهذا صوتك الذى أسمع ؟

أهذا صوتك يناديني ؟ شلال فرح يغسلنى .
 أهذا صوتك يأتينى ؟
 - « تعالى » : دفقة هواء لصدر يموت اختناقاً .
 - « تعالى الى مكتبى » تكررهما على مسمعى .
 تغسلنى فرحة خاطفة من كل أحزاني .
 أقف وقد تحولت الوجوه حولى أطيافاً .
 أبتعد عن المكاتب وأركض اليك . وابتسامتى تسبقنى .
 أركض اليك غير عابئة بالاعين المراقبة ..
 أركض اليك غير عابئة بالاعين المراقبة ..
 تنقلص الفرحة فجأة ، تنطفىء .
 فأنت تدعونى لعمل ما تريده ، أو لحديث ما يشغل المدينة
 - بدأناه صديقين حميمين - ولم نتممه ،
 وأظل أشد جيداً قناع أخلاقى وأنا قادمة اليك ،
 قبل أن يسقط عندك .

ARCHIVE

رسالة عدد 3 : إعراف

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

اليوم ، حدثتك كثيراً عن مظالم الدنيا ومشاكلها
 لفنا النظم وشد منا المحتكرين ،
 واقترحنا حلولاً لاعادة الرفاهية للكون .
 .. ثم افترقنا ، والالفة حادة كثيفة مكربة
 تطلق نيران الخطر .
 افترقنا ،
 ولم تلمح الخوف فى عينى من ضياع أحلى ما يجود به العمر ،
 ولم تقرأ حروف النار فى كلماتى حين تكون لك دون سائر
 الناس ،
 حرارة تنفذ الدنيا قبل أن تصبح مجرد قطب جليدى .
 فهل أكتب لك من جديد ؟
 وأعود أبحث كمراهقة عن دمة تمسحها أناملك ؟
 يا جنونا عذبا سكننى وأسدل عليه الستار !
 يا تجاوزا مدهشاً يحرك بركة الركود والكدر .

يا تعباً جديداً أحلى من كل الاتعاب ،
يسكننى سواء كنت قريباً أم بعيداً ،
وأنت تأتى - رغم بعدك - تسرق صفوى وانشغالى
تكسر الابواب لتدخل غصباً عن كل الحراس .
تأتى ، تضيف قطعة سكر فى مرارة قهوتى ،
وتنثرنى مطر نشوة تحت ألوان قوس قزح ،
وتبعث الرعشة المباركة فى قللى .
وتنهمر معك كل ألوان الخلق الجديد لكيانى .
ثم ، أطوى صفحاتى ، ولا تدري .
وأظل أحدثك عن آلام الناس لأكتف آلام جنونى .

رسالة عدد 4 : أنت والليل

ألا تتركنى أنام ؟
تأتى .. توقظ أناملك فى خيالى شهوتى .
تفتح باب أحلامى ، وتزرع الاضواء والافراح المحرمة فى الدنيا .
ورغم ذلك ،
تبقى علاقتى بك سرا ، وحلماً من أحلام الليل ،
وجنوناً يمارس فى الخفاء .

رسالة عدد 5 : أنت والذكرى

يا غريباً ،
مرت ساعات وأيام ولم تقف ببابى ،
ولم أقف ببابك .
ولكنى أذكر كل السنين والايام والساعات معك ،
وأنت قهوة الصباح الساخنة التى لا غنى عنها .
وأنت مشرق الشمس ،
ودفقة النسيم المنعش المحيى .
وأنا أدمنك ، أدمنك ، أدمنك .
وأذكر :

أتيتني منذ يومين .
 كانت خطواتك القادمة وحدها : مشرق شمس ،
 ودقات طبول ، وأنغام مزامير أحلى أعياد الاطفال .
 خطواتك فقط ، كانت موسم فرحة قادمة .
 وحين أقبلت علي حرارة أنفاسك ، أضأت عيناك الدافئتان
 ركني المدلهم .
 وتبادلنا أوراق عمل وكلمات صغيرة ، تافهة .
 لا .. بل كانت الكلمات ارتعاشات وتر .
 كانت قد انبعثت من مكتبي الساكن أعذب الالحان .
 وانكمش بيتهوفن وموزار وشوبان .
 وبعدك ، بقيت أنفاس موسيقى دافئة ، مسحورة تتسلل من
 الاركان .
 واستسلمت وقتها - ككل مرة تأتينني - لأصابع النشوة
 والفرحة النادرة .

رسالة عدد 6 : إدمانك قاتل

أأكتب لك من جديد ؟
 صباح الخير من أيام لم تجمعنا .
 مكتبك مغلق ، وحديثنا ونقاشنا الدائم وضعفكاتنا
 تردد صداها الجدران .
 أأكتب لك من جديد ؟
 يا قاتل ضجري ومنقذي من رداءة الزمن !
 أين أنت ؟
 يا جنونا لا أستبد له بأعظم عقول الدنيا !
 أين أنت ؟
 وأنت دني وخمري ،
 وإدمانك قاتلي .

رسالة عدد 7 : ومع ذلك !

أين أنت !
 تطول الايام ، وإدمانك ينهشني .

تطول الايام ، وقد تكون أخذتك .
 وأسأل كل صباح مشرق الشمس .
 فتضحك الشمس أكثر .
 ورغم ذلك ،
 ورغم كل المرارة والعذاب .
 دعنى أسر لك أنى حييت بك ، وبك سأظل أحيا .
 لذلك ، دعنى أقول لك شكرا
 - وإن كانت الكلمة جد صغيرة وتافهة .
 ولكنى لا أجده غيرها .
 ♦ شكرا يا رجلا علمنى أن أحب فى أصعب الازمنة .
 ♦ شكرا حتى حين تفتح أوجاعى .
 فقد منحتنى بطاقة سفر مجانية لأجمل المدن وأكثرها سحرا .
 وأهديتنى أزكى العطور لتلقى كل عفن المدينة .
 وترفعنى زمتنا ما عن وحل طريقنا
 وعلمتنى حبا شاسعا لكل الناس وكل الكائنات .
 ♦ شكرا ، فيك تعلمت أن أنام بعمق وأحلم بعد أن كنت أظن
 أننا فقدنا الى الابد راحة النوم وحرية الاحلام .
 ♦ وغدا ، أكيد ، ستلذعك الشمس بحرارة كلماتى ،
 وسيذيع النسيم عطرك المجهول .
 ♦ وغدا ، حين نلتقى ، وتمتد يدي نحوك ،
 دعها تنام فى راحتك ، ليهمس لك خصب الحياة الذى
 أهديتنيه : شكرا .
 و .. لأدمنك أكثر .

بنت البحر

- نوفمبر 1981 -

الرواية : لمحمد الهادي بن صالح

النقد : لعمر بن سالم

نظرة في الحركة وانتكاس الشمس

- « الحركة وانتكاس الشمس » ، طبع شركة صفاء للنشر والتوزيع والصحافة ، تونس ، ماي 1981 . الرواية في 181 صفحة من القطع المتوسط . وهي ثالث رواية تصدر للمؤلف بعد :

- « في بيت العنكبوت » ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1976 .

- « الجسد والعصا » ، شركة صفاء للنشر والتوزيع ، تونس ، 1980 .

تلخيص الاحداث في الرواية :

انطلاقا من فيلم بوليسي ، تبثه التلفزة ، وعبر إغفاءة للبطل المتمدد على أريكة في صالونه الفخم ، يعود بنا الكاتب بطريقة استرجاعية مشوشة الى عالم هذا الرجل المتكهل ، المزدوج الاسم ، المزدوج الضمير ، المزدوج الشخصية ، مستعرضا لنا حياته طيلة فترة بث الشريط على الشاشة الصغيرة ..

واذا نحن رتبنا فقرات الرواية ترتيبا زمنيا ، وأعدنا تركيبها من جديد ، كما تركيب الافلام بعد التصوير أمكننا أن نشاهد أولا بأول : فتى صغيرا في سن الدراسة الابتدائية ، يعيش ضمن عائلة فقيرة تسكن قرية من قرى الجريد التونسي . تمتهن الام فيها صناعة الصوف التقليدية ، بينما يهاجر الاب طلبا للرزق ، محترفا في الوسط الغربي من البلاد تجارة بدائية تعتمد المقايضة والتجوال ، ولا تدر عليه الا ما يسد به الرمق ، ويسمح له بتوفير حاجة بيته وأهله الى الغذاء . وينجح هذا الفتى الصغير سعد الملقب بالهندس في مناظرة الدخول الى التعليم الثانوي ، فيلتحق بالعاصمة لمواصلة الدراسة مدفوعا بطموحات أمه ، ومزودا بتمنيات وأدعية الجدة ..

منذ بداية الرحلة تبدأ المأساة بالنسبة لهذا الطفل المنبت . وإذا نحن تجاوزنا الارهاصات والمشاكل التي اعترضته وهو تلميذ يافع لم يتلاءم لا مع الوسط المدني ، ولا مع البيئة المدرسية بالعاصمة ، فاننا نجده بعد تخطي العراقيل واجتياز الامتحانات أستاذا يدرس التاريخ في أحد المعاهد الثانوية في تونس . وما نكاد نرتاح لنجاح صاحبنا في الحياة ، ونغتبط له في حصوله على وظيفة حتى نحس أن سوء الطالع الذي لازمه سنوات الدراسة ، ما زال يلزمه أيضا بعد التخرج ، وهكذا نراه يزج به في السجن ظلما بسبب نشاط أخيه الطالب في الجامعة وانتمائه السياسي . وهو خطأ قضائي يدفع هذا البطل المنكود ثمنه غاليا ، حيث يسجن ، ويطرده من الوظيفة ، وتنسد أمامه أبواب الرزق ، وينبذه المجتمع .

وكما يلعب سوء الطالع في حياة صاحبنا دورا مهما فان المصادفة الحسنة تلعب هي أيضا دورها في هذه الحياة . وهكذا يجد البطل ذات يوم نفسه على كرسي في مقهى . وهناك تتعرف عليه تلميذة من تلميذاته . هي أيضا مزدوجة الاسم والضمير والشخصية ، عائشة شهرة شيكاغو ، فتنتشله هذه مما هو فيه من خصاصة وكبت وحرمان .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ويقبل هو العيش في كنفها مدة ، ولكن الحصادة تخونه فيتنكر لعشيقته هذه ، ويرتقى في أحضان عشيقه ثانية ، هي أيضا ذات وجهين واسمين ، حضري : سلوى ، وبدوي : حدة .

وتلفظه عائشة ، فيتمعش من خنا سلوى مدة تنتهي عندما تختفى هذه فجأة من المدينة ، كما جاءت ، فلا يعثر لها على أثر .

ويظل البطل يتسكع في الشوارع مدة في انتظار المعجزة .

وتحدث المعجزة بالفعل عندما تلتقى به عائشة يوما فتسقدر هندامه وترمي له بدينار ، ناصحة اياه باشتراء سروال من « الروبايكيكا » . وتشاء الصدفة أن يبيع هذا السروال ، ويربح فيه مباشرة بعد اقتنائه من صاحبه . وهو ما جعله يفكر جديا في الاتجار في « الروبايكيكا » . وتساعد ظروف التحول الاشتراكي في فترة تركيز التعاضد في الحصول بسهولة على محل للبيع ، ثم

على ثان ، ثم على ثالث . وتزدهر تجارته بالسراويل القديمة فيفتح متاجر
عصرية ، ويصبح ثريا فى وقت قصير مثل أثرياء الحرب .

وهكذا تتقلب به الاوضاع من بطل متسكع الى « برجوازى » متشبع ، له
منزل فخم وعشيقه جميلة وسيارة ضخمة ، وكلب المانى أصيل ، وخادمة
سوداء . وتتخلص هموم الحياة عنده فى إدارة متاجره والاستراحة فى داره بعد
العمل . وهكذا يتغير نمط الحياة عنده فينسى طفولته البائسة وشبابه المعذب .
ولا يبقى له منهما فى كهولته المترفة الرتيبة الا ما ينتابه من حين لآخر أثناء
نومه من أطياف وكوابيس .

وأحداث الرواية دائرية تبدأ من إغفاء البطل أمام التلفاز ، وتدوم مدة بث
الشريط البوليسى ، وتنتهى بانتهاء البرنامج .

التعقيد الدرامى فى الرواية :

هذا التركيب المختصر البسيط « للحركة وانتكاس الشمس » هو على
بساطته معقد داخل الرواية .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وسبب هذا التعقيد يعود فى نظرى الى تعددالشخوص الروائية من جهة ،
والى تقطع الاحداث وتباين المواقف من جهة ثانية . وقد تعتمد المؤلف نسج هذه
الضبابية حول الشخوص والمواقف ، وذلك حتى آخر صفحة من صفحات
الكتاب . هل كانت غايته التعقيد أم التشويق ؟

لا أشك فى أن محمدا الهادى بن صالح يعتبر التعقيد والالغاز من عناصر
التشويق الروائى . ولذا نراه يحذف كل العلامات الاصطلاحية الدالة على
التبويب أو الفصل ، ويدمج المشهد فى المشهد والموقف فى الموقف ، ويمزج
التذكر بالواقع والواقع بالاحلام والاحلام باليقظة واليقظة بالنام والنام بالوهم
والوهم بالحقيقة والحقيقة بالهزل والهزل بالجد والجد بالانهزام والانهزام بالعزم
والعزم بالخذلان ... الى آخر المفارقات التى لا تخطر على البال . كل ذلك عن
وعى وعن قصد . فهو يعتبر الرواية مغامرة . والمغامرة لا تكون بالنسبة اليه
الا فى المناطق الوعرة وفى الادغال المتشابكة .

وقد حاولت فك الادوات الفنية التى يستعملها فى هذا التشابك والمزج ، فوجدت أنه يعتمد ثلاث تقنيات أسلوبية لربط فقراته الاستطردادية .

وهذه التقنيات هى :

– التوارد الدلالى للجمل .

– التسلسل الايحائى للكلمات .

– التقابل والتشابه فى الحالات والمواقف (I) .

وهذا النسق من الترابط الموضوعى لا يستقيم فى كل الصفحات ، ولكنه هو السمة الغالبة على الجمل السردية المتواردة بعفوية ، وبلغة تكاد تكون هى لغة التعبير اليومى عند صاحبها .

الزمان والمكان فى هذه الرواية :

التعقيد الدرامى فى « الحركة وانتكاس الشمس » ، كما هو الحال بالنسبة للشخص و المواقف ، جعل عنصرى الزمان والمكان متقطعين متداخلين الابعاد . فالبعد الزمنى عند المؤلف لا يستقر فى اتجاه معين ، وإنما هو اقتطاع واقعى واقتطاع خيالى ، وآخر بين بين ، يدخل فيه البطل عندما يسمح له مجال الحلم بالخروج من دائرة الارهاص .

وكذلك عنصر المكان فى هذه الرواية ، فهو اقتطاعى أيضا . قد يتجدد بالواقع أحيانا ، وقد لا يتحدد .

والمكان بالنسبة لأمثال هذه الروايات « المواقف » غير ذى شأن ما دام الابطال يعمرن ذواتهم بفنائهم الخاص الذى ينطلقون منه ، واليه يعودون . فهم يتقلبون فى محطات فضائية نفسية ، قد تكون القرية ، وقد تكون السيارة أو المستشفى . المهم ليس المكان بالنسبة اليهم . المهم هو الاحساس بالحركة أو بانتفاء الحركة ... والشكل الذى اختاره المؤلف لروايته يتلاءم تماما مع هذا الانتقاء الاقتطاعى من الزمان والمكان . وهو ما جعلنا ننظر الى الفقرات السردية

(I) « الحركة وانتكاس الشمس » ، الصفحات : 5 ، 10 ، 16 مثلا .

على أنها لقطات سينمائية معبرة أكثر منها كتابة أدبية مشحونة بالتخيل والايحاء ...

الشخص الاساسية فى الرواية :

ليس هناك فى الواقع الا شخصية واحدة أساسية فى « الحركة وانتكاس الشمس » هى شخصية المهندس أو سعد بن عبد الحفيظ ، والبقية شخص ثانوية بما فى ذلك عائشة . على أن اختلاف درجات الحضور الروائى تختلف من شخصية ثانوية الى أخرى . وهكذا تأتى بعد عائشة الام مسعودة ثم سلوى التى كانت حدة ، ثم نجية ، ثم محبوبه بن بنت الشيخ طه ، ثم بية الناصر ..

ونرى ان عدد النساء فى هذه الرواية أكثر من عدد الرجال ، فكان البطل لا يتحرك الا فى اتجاه المرأة ومن خلالها ، مهما كانت علاقته بهذه المرأة . فوجوده منها واعتماده عليها . هى بؤسه ونعيمه ، وفيها التعاسة والسعادة . ولم يتخل البطل عن هذه « التابعة » الا عندما اكتهل وأحس بالارهاق . ومع ذلك فقد ظلت المرأة تشوش نومه وتنسج له فى أحلامه الكوابيس (2) .

الشخصية الرئيسية فى « الحركة وانتكاس الشمس » هى شخصية مركزية جدا ، تستقطب كل ما حولها من شخصيات . وهى شخصية ذات أبعاد تختلف باختلاف ما يكتنفها من حالات .

فهى شخصية تتصرف حسب وضعها الظرفى ، وتتطور معه فى الاتجاه المرسوم . وهى أيضا التى تحدد علاقات التعاطف أو النفور بينها وبين بقية الشخصيات الثانوية ، وذلك من خلال منظرها ومركزها . وهكذا نجدها قاسية الى أبعد الحدود ، ومنخذلة الى أبعد الحدود ... وهى كذلك شخصية حاضرة فى الحوار والسرد ، وكذلك عند التذكر والاستطراد . ولها مجموعة من الالسنه وعدد من الضمائر : فسعد هو المتكلم والمخاطب ، الحاضر والغائب ،

(2) ظاهرة الجنس تشمل كتابات القصاصين النفطيين ، وهى فى نظرى تستأهل دراسة مفصلة بسبب اطرافها وكثرة ورودها عند كتاب هذه المنطقة .

المتهم والمدافع ، المؤيد والمعارض ، الراوى للخبر والمفند له . وهو فى كل ذلك العالم الحكيم والمفكر المجرب ، الا انه يظل فى قدره الروائى ناقصا منقوصا ، لا يرضيه شئ ولا يستقر على حال . مأساته معلقة على رأسه كالبطل اليونانى ، ومصيره الى ما لا يريد ، ولو حصل على كل ما يريد ...

موضوع الرواية :

هل « الحركة وانتكاس الشمس » رواية موضوع أو رواية شخصية ؟

أى هل هى رواية ايدولوجية أم رواية نفسانية ؟

فى الواقع ان « الحركة وانتكاس الشمس » هى مزيج بين النوعين ، فهى ليست خالية من الخلفية الايدولوجية ، ولا هى خالية من التحليل النفسانى والاجتماعى لشخصية البطل .

هل قصد المؤلف هذه المزاوجة والاخذ من كل نوع بطرف ؟

قد يكون .

الذى استخلصه من قراءتى لها هو أن الكاتب لا يستقر على حال من القلق . وأنه لا يرغب فى التعمق أكثر من اللازم فى تقصى الموضوع ، ولا فى تحليل الشخصية .

محمد الهادى بن صالح فى هذه الرواية كاتب قصة بوليسية ، يحقق مع الشخصية المركزية ، ويكشف لنا شيئا فشيئا خفاياها وتصرفاتها مع الناس من خلال الاطوار التى تقلبت فيها مع الحياة .

فهو منذ البداية قد حل موضوعه فى بحر الحياة . وهيهات أن يستطيع جمعه لاعادة تركيبه . فهو يتلقف مثل القارىء مع كل موجة حادثة أو خبرا ، ولكن ما يتجمع بعد العناء يظل فى حد ذاته متفرقا كقطع الغيار ، غير منسجم ولا متناسق . ومن هنا كان التشتت والضياع فانتقاء الموضوع مختل فى هذه الرواية . ولا يمكننا بحال حصرها فى دائرة ايدولوجية أو نفسانية معينة . لانه لا حصر فى الواقع للعناصر التى تتركب منها ، ولا حدود

للشخص التي تظهر فيها . فلا بداية ولا نهاية الا للبطل الذي أمكننا تشييته على أريكة الصالون لمدة الساعة ونصف الساعة تقريبا .

وهذا لا يعنى أننى أنتقد هذا الاتجاه فى القصة ، وانما الذى يعينى أولا وبالذات هو وحدة الموضوع الذى لا يتحدد بوحدة الحياة ، ولا بوحداية التجربة فى نظرى .

ولذا تظل « الحركة وانتكاس الشمس » على حافة الواقعية الاجتماعية . وهى فى نظرى أدخل فى الرواية الشخصية التى تروى مغامرات البطل وتقلباته فى الحياة ، فتشد القارىء من هذا الجانب السيرتى ، لا من جانب الموضوع الذى تعالجه . فهى مثل رواية محمد شكرى « الحبز العارى » وهى أقرب الى السيناريو غير الفنى منها الى القصة الفنية ذات البعد الادبى .

وأجمل ما فى هذه الرواية هى تلك الصفحات التى يتحدث فيها البطل عن رحلته من القرية الى العاصمة عبر « فريانة » ، ثم التحاقه بالصادقية ووصفه لحالة الضياع التى عاشها منبوذا مطرودا وهو تلميذ . ولعل لهجة الصدق التى قرأناها فيها هى التى حببتها الينا رغم التقطع والشرود ...

الهتات التى تؤخذ على هذه الرواية :

من هذه الهتات ما يتعلق بالشكل ومنها ما يتعلق بالموضوع .

ويمكننى بكل اختصار حصرها فى النقاط التالية :

- عدم احترام المؤلف للمصطلحات المعروفة فى الكتابة الفنية ، بما فى ذلك التنقيط والعودة الى السطر عند الانتقال من موضوع الى موضوع ، أو من ضمير الى آخر .

- تغلب الدارجة على هيكله الجملة العربية عنده ، بحيث لا يهتم فيها لا بالتركيب ، ولا بالتكرار ، ولا بالنقص ، ولا بالزيادة ، ولا بالطول ، ولا بالقصر .

- قلة الحوار الذى قد يدخله أحيانا فى شكل رواية للحوار ، كأن الكاتب لا يحتمل المواجهة المباشرة بين شخصوه فىلجأ الى الحكاية السردية عنهم .
- التقطع المضمونى بين الفقرات وتكاثر القفز والتكرار ، واضطراب الضمائر فى الرواية وتداخلها ، هى وعوائدها ، فى السرد .
- قصر النفس فى معالجة المواضيع المطروقة والاكتفاء منها بإيراد الشذرات ، ثم التخلص منها فى النهاية بالشذب أو بالقطع والتأجيل .
- تعليق المواقف تهربا من اتخاذ القرار وتحمل المسؤولية ، سواء أكان ذلك بالنسبة للبطل أو الداخلين معه فى الحوار والمواجهة .

اللغة والاسلوب :

أحب فى النهاية ان أعرج على قضية اللغة والاسلوب ، وان كانت قضية تحتاج بحد ذاتها الى عديد الصفحات والاستشهادات ، ولكننى أكتفى هنا بالقول ان الكتابة بالنسبة لمحمد الهادى بن صالح هى ضرورة ، وليست ترفا فنيا ، ولا زخرفا بلاغيا . كتابته عندى لا تتعدى مستوى « الصفر الادبى » ، الا بأسلوب الاداء الروائى لفقراتها . وهو اختيار لا أناقش فيه المؤلف ، ولا ألومه عليه الا عندما ينحدر به الى مستوى الدارجة فى التركيب أو اللفظ . وهو انحدار بدأت تخف حدته عند صاحبنا من رواية الى أخرى . وهى ظاهرة تستحق أن تذكر له هنا للتنويه بما يبذله فيها من مجهود .

عمر بن سالم

خارج حدود الامكان ...

نحي الكتاب جانبا بعد أن تلبدت أصابعه .. ثقيلة هذه الليالي .. ريح باردة تلم الجدران .. برهة ونظر الى ساعته بعين عابرة .. أحس بالزمن قد تجمد وانقطعت أنفاسه .. تراقصت في عينيه تعابير حائقة : (لعننا الله) تذكر أن ساعته معطوبة منذ أيام ، ولم يستطع إصلاحها !

واجتاحته نوبة سعال .. البرد دبابيس تخترق ببطء داخل العظام الواهنة، وتستقر .

نهض لعله يظفر ببعض الدفء .. جدران الغرفة استحالت الى خرائط قديمة .. قام كالمسوع .. سار نحو وسط الغرفة ، وحرك جسده حركات متتابعة ليدفع في شرايينه بعض الدفء المفقود .. غريب هذا الجو ! هذه البرودة .. نفخ من صدر معطوب .. كانت أنفاسه تتصاعد من صدره موجات من ضباب .. هذه ليست تمارين الصباح لان الوقت مساء .. في اللحظة ذاتها طرقت مسمعه الجلبة اليومية المعتادة : (أذفت الثامنة .. سمان الحارة قد أغلق محله) في نفس الميقات من كل يوم يحدث هذه الجلبة . وتقادير أقدامه الزقاق الطويل . رويدا .. رويدا .. ويبتعد بخطواته الزاحفة لتهجع .. لقد داهم « صابر عبد الرحمن » شعور بالحركة بعد أن عم هدوء .. قرر الخروج من قعر العمارة المتهالكة في تلك الليلة المعربة ...

لم يكلف نفسه عناء اختيار الثياب .. بدلة الجوخ البنية الغامقة لا يوجد سواها .. عندما كانت جديدة ارتداها في مناسبات خاصة .. مضى زمن لا يعرف عمرها .. الآن يشعر بالقلق لتحول لونها ، ذلك لان هذا التحول كان بطيئا مع الزمن .. كان حريا به أن ينسى لونها على مر الزمن وتقادم العهد .. لا يهم ! هاجسه اليومي يتخطر له دائما باستبدالها . ولكن !..

فرغ من ارتداء ثيابه .. نظر الى الحذاء باشفاق .. وقف أمام المرأة .. شعر
كأنه كائن محنط .. لم يسرح شعره لعدم عثوره على المشط . ولفظته الجدران
التي تفوح منها رائحة غريبة حادة ، أشبه برائحة القبور ..

خرج ليتنفس هواء أنقى !

دلفت خطواته صوب المدينة .. شعر بالدفء . خواطره تثب بين الحين
والحين . تتحول الى إبر تخز جسده : (أين تمضى أيها البائس ؟ وجدت نفسك
مشدودا بقوة الى هذه المدينة الكبيرة ! مجذوبا الى الغول الكبير . رسوت هنا
لتحقق أحلامك . بلى ! أنهيت تعليمك .. تجذرت فى مناخ مزدحم بعيدا عن
الاهل والاحباب لتتسكع فى سرايب وهمية ؟) .

هذه الهموم تحط على قلبه كالعرشة . باهتة ، مقببة ، تلاحقه بكل ثقلها .
لا تدعه تلك الهواجس . وتمخر به الكوايس بسفن بلا أشرعة . وما أذلها من
وقفة ، عندما يتذكر ركوعه وتسمره الحائر المخنوق . وكثيرا ما أحمرت عيناه
وحبس الدمعة . كان أحيانا يراوغ فى الحديث معه ويتلجلج دون طائل :

- حاول يا سيدى أن تساعدنى !

- هل تعتقد مال الحزينة ملكى ؟

صمت برهة أمام المحاسب ينتظر الغيث :

- (بين) فى أواخر الشهر .. ربما تنتهى جداول الصرف .

عقب متضايقا :

- أما آن لهذه الجداول أن تنطلق ؟

استضحك الرجل ثم استقام بجسمه المكعب ، وابتعد عن الطاولة يقصد
الحزانة الحديدية . مضت لحظات مقببة . اقترب منه بعد برهة ثم هتف قائلا :

- يا أستاذ ! أتدرى قبض الجداول كيف يتم ؟ لها أصول و ...

قاطعها يائسا :

- يعنى ما فى حل ؟

فى هذه البرهة ، غرس اصبعه فى مؤخرة شعره الاشيب وقد أجاب :

- أبدا !

- ولو سلفة ..

- هل نسيت أنك مكلف ؟

لفظته غرفة المحاسب الى الخلاء المخيف .. لعن حظه ألف مرة وهو يغادر المديرية .. أشباح كثيرة تلاحقه .. شبح الدين لا يستطيع التحلل منه ! أصبح دينه ثقيلًا يرغب في تسديده .. يحس به أكثر قيда على حرية الانسان من قضبان السن !

تجده في ضائقة مستديمة ، لان موارده غير منتظمة . تذكر : (والاهل ؟..). آه .. فكر : (هل أتجاهلهم ؟..) (والى متى ؟) ربما صم أذنيه خلال الشهور الماضية . بين يوم وآخر يشعر بثقل شديد الوطأة على نفسه . يعرف أنه الذنب .. أوغز الى نفسه هذا التساؤل بشفتين مزموهتين : (كيف أوصل الحياة على هذا النحو ؟) ...

واندس في الشوارع المضيئة حيث الناس . فظاعة !! ما هذا البرد ؟

ARCHIVE

- حوح !! حوح !!

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

تطفح رائحة البهجة .. الفرح في العيون . غمره طوفان : (امش ! هذا زمن المشي والتسكع .. هؤلاء الناس المساكين لم يفعلوا غير التسكع وامتلاك البهجة المصطنعة . وجوههم باردة وأعماقهم مشتعلة ..) .

تعانق عيونه الاضواء . تبكي العيون المبجلة ، وتتجمد الدموع . تتساقط حبات برد وترتطم . يشده ذلك الغول ويناديه . لقد عرفه . إنه متلفح ببريق زاه . ولكن أين يذهب ؟

ينظر الى الواجهات كغيره من المغبوتين ، ويحلم بالتغيير .. يشتعل بالهواجس وهو يرى الحوانيت الحبلى بالغلال . سيارات تنفجر منها قذائف ناعمة لطيفة . تنطلق كالبرق .. تخلف نسمات باريسية معطرة .

يحس في آن واحد بالظلمة والاضواء . وأن عمره الآن لا يساوى أكثر من شوكة في صحراء يباب . كاد يهلك في نار محرقة ، زوبعة دخان لا تني تراقص من ضريحه المتحرك ..

اللجنة !! أنت حياة ؟ نحن فى زمن الوعى والصحوه وتوزيع الغلال ...

- حوح !! حوح !!

سعاله يفضحه بين الناس كأنه فى غابة الصقيع .. العيون تحددق به ..
منبوذ يمضى مع خواطره الخرافية : (إيه يا روح ! زمن البرد صار . السائل
الاسود . إيه .. أغلى من العطور صار . نحن فى زمن الطاقة والغلاء والصمت
المسرف .. حيث كل شىء لا يطاق !) .

كان فى دروسه يتحدث عن العلم والتقنية ويحلم بالدفء .. لقد أسرف فى
طرح فكرة تراوده أما الطلاب ، كانت مثار جدل لاهب .. تحدث طويلا عن
حلمه فى تدفئة الطرقات والازقة والدروب الضيقة . دعم رأيه ببعض الآراء
والحجج المقنعة . إنه متفائل بقدرة العلم : (لا شىء مستحيل ما دام الفكر
الانسانى قادرا على حل المعضلات) .

أحس بالبرد خلال الدرس . يعرف أن ميزانية المدرسة عجزت عن تأمين
حقه فى التدفئة . ها هوذا البرد يحاصره فى الصف ، والبيت ، والشارع ،

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- حوح !! حوح !!

دس أصابعه فى قعر جيوبه .. نسمة باردة تصافحه (ضحك !) اكتشف
ثقبا جديدا فى القاع . تنهد حزينا على البداية المتكاملة من الداخل والخارج ..
ماضيها حافل بالذكريات .

عيناه تنجذبان الى الاضواء والصور . توقف قليلا . إنسل كغيره من المارة
نحو الصالون الواسع ، وأخذ يحددق فيهم . شعر بالدفء : (يبدو أنه عرض
مسئ) ليكن ! إنه يبحث عن مكان خال من البرد ، ينعش فيه أطرافه المتجمدة .

هم بالدخول الى الصالة .. هاجمته روائح ، وموسيقى ، وجو مصقول لماع ..
بعض العيون ترمقه وتلدغه النظرات . نظر الى حذائه المثقوب . خاطب نفسه :
(لا تخجل يا صابر . لقد تعودت نظرات الناس وكذلك طلابك صرعوك
بالتعليقات . بلى ! غدا تقبض وتصلح الثقوب الموجودة فيك جميعا . نعم كل

الثقوب .. المال يغطى كل التشوهات . غدا يمكنك أن تشتري البداة والحذاء الجديدين ، وتغدو إنسانا) بقلب مهموم نفخ من أعماقه . ثم دخل .

عاد الى البيت بعد حضوره عرضا ممتعا .. عاودته نخرات البرد ثانية .. احتوته الحيطان التي تنز رطوبة .. يفكر فى غده وتتعاظم همومه .. راحت تنشط أفكاره المسترخية الحاملة . وأى حلم ! فى حلمه تراوده ألف امتعاضة .. شأنه كل ليلة عندما يختلط لديه الحلم باليقظة . غاص فى أرض بلا قعر . قفراء متشقة تلك الوهاد التي لا مساحة لها : (موعد القبض قد أوفى ...) ترعبه الكوابيس الباردة . سار خطوات حثيثة فوق الزجاج المتجلد ، يريد أن يقبض ..

وعبثت به رؤى ١٩

معركة أشد ضراوة تنشب فى داخله .. يتصارع عقله مع الحلم ويأبى الانتظار .. يحلم بالغد الآتى ... وأحس بالاستغراب عندما غابت عيناه فى الدهليز الطويل الفارغ .. تغلغل فى عظامه صرخات .. إمتنع من الهدوء الذى يغازله فى تلك اللحظات .. أبواب المديرية مشرعة وغرفها خاوية لا حياة فيها : (اليوم عطلة ؟ غير معقول !)

خطا خطوات مفزعة . لم يلامس اسماعه صوت آدمى . ألقى نظرات متلاحقة ، سريعة على أبواب الغرف . أسرع فى خطواته فلم يجد أحدا .. قطع الممر الطويل فى الطابق الاول ، ثم ارتقى الدرج الى الطابق الثانى « غريبة ! » إنه يوم القبض الموعود ولا يرى أحدا .. تاه برهة ، وبدأ الرعب يدب فى قلبه .. اجتاحه قلق عندما وجد الغرفة المقصودة خالية تماما !

فى تلك الآونة تناهت اليه أصوات من بعيد ، فى آخر الممر .. أسرع الخطى ثم ركض لهفان ليرى ..

وقف بغتة مشدوها فاغر الفم : (ما هذا ؟) غادر ملامحه استغراب مباغت . تصلب فى فم الباب ، على المشهد الغريب وقد صاح :

— تلعبون الورق فى وقت الدوام ؟

— اليوم عيد (عقب عليه أحدهم بلا اكتراث) .

- عيد ! (علت وجهه الدهشة) .
- نعم .. إنه عيد التفوق .
- دخل الغرفة وهو لا يدري أن كان فى مؤسسة رسمية أم فى مقهى ؟ تلك تساؤلات راودته فى تلك البرهة .. انصرفوا عنه منجذبين الى الورق . ولكنه أعلن سخطه قائلاً :
- أى عيد هذا الذى لم نسمع به ؟
- توقفوا عن اللعب . أسهموا نحوه بنظرات همجية قاسية . ابتدره أحدهم قائلاً باستعلاء :
- من أنت .. وماذا تريد ؟
- إننى مدرس . من المفروض أن أقبض اليوم كل أتعابى عن الشهور الماضية (ثم أتبّع) لقد يئست ! حالتى لا تسمح بالانتظار أكثر من ذلك ...
- يبدو أنك طويل اللسان (خاطبه أحدهم بلهجة متفطرسة) .
- التمعت عيناه الصغيرتان . ثم قاطعه قائلاً :
- وأنت قليل الادب !
- تلبدت الوجوه . وتصدى له أحدهم قائلاً :
- ماذا تقول ! ألم تعرف من هو ؟
- ساورته لحظات خوف ثم قال بجرأة :
- لا يهمنى !
- إنه المدير !!
- صاح المدير بلهجة آمرة ، ويده تبحث عن القلم :
- هيا أعطني اسمك !
- ليس مهما يا سيدى (أجاب بهدوء) .
- أمتعوه أنت ؟
- إننى مواطن سليم القوى عندما التحقت بعملى .
- والآن ؟
- سوف أترك مهنة الاستخدام هذه !

استفسروا بلهجة هازئة :

- ما السبب ؟

- إنه الصقيع !!

ارتسمت على الوجوه غيوم داكنة تلفتت بالحيرة . ثم هتف أحدهم مستفسرا :

- أى صقيع ؟

- إنه كالسرطان قد استشرى فى كل مكان (ثم أردف) ألا تدرّون ، وقد تسرب الى القلوب والعقول جميعا ؟!

تبودلت النظرات الساخرة . ثم ضجّت الغرفة بقهقهات صاخبة : (ها .. ها ..) وغادر صابر عبد الرحمن الحجرة لا يلوى على شيء .. واستمر اللهو والضحك والثرثرة .

ARCHIVE

أفاق من نومه محنط الجسد أضمنت له الأحلام ما زال يفكر بالحلم الغريب ! بات لا يفرق بين عالم الأحلام وعالم اليقظة ، لأن ذلك الحلم قد راوده كثيرا خلال الايام الاخيرة .. وانتشل نفسه من البرهة الذاهلة ليتابع عمله اليومي المعتاد قبل أن يدركه الوقت .

كان فى غرفة الادارة عندما سلمه المدير رسالة عرف مصدرها قبل أن يفضها .. الخط المنساب بعفوية قد رسم له فى ذاكرته صورة أثيرة الى نفسه. فتحها وقرأ الكلمات بشوق آسر : « يا أخى صابر . أمك تقرئك السلام ومشتاقا اليك جدا . وتذكرك مرة أخرى حول موضوع اصلاح السطح وترميم البيت و »

ننتظرك بفارغ الصبر »

أخوك حامد

الليل والحرمان والعاصفة

كنا فى أوائل فصل الربيع ، الطقس جميل منعش يميل الى الاعتدال . وكانت عقارب الساعة تقترب من الثامنة مساء حين قدم صديقى حسن يدعونى للخروج معه فى جولة قصيرة نستمتع بضوء القمر الذى أخذ يدنو من الاكتمال ، وبهدأة الليل وأنسامه المنعشات . أبديت له رغبتى فى البقاء بالبيت للاستماع الى نشرة الانباء التى حل موعدها . لكنه أصر على مصاحبتي له قائلا :

- بإمكانك أن تستمع الى الاخبار فى فترة السهرة . إنى أشعر بالاختناق وأجدنى فى حاجة الى السير قليلا والى رفيق مثلك يشاركنى جولتى أبادله الحديث وأبثه ما فى نفسى .

وأمام إصراره لم أجد بدا من النزول عند رغبته . كان الحى يسبح فى ضوء القمر ، بعض المنازل مشرعة الابواب ، نور خافت منبعث من نافذة هنا ونافذة هناك ، لفظ رجال ونسوة يرتفع بهذا المنزل أو ذاك . انه حى شعبى فقير معزول منسى ما يزال أهله يستعملون مصابيح الغاز للانارة لعجزهم عن تسديد تكاليف اىصال النور الكهربائى الى دورهم .

مضيئا نتمشى جيئة وذهابا بمحاذاة الطرق الرئيسية العامة التى تفصل القرية الى شطرين .

ومن حين لآخر كان يلوح لنا شبح رجل يسير بهذا الاتجاه أو ذاك . وقد يمر احدهم بالقرب منا فيسلم علينا بعد أن يصعد فينا النظر مليا فى محاولة للتعرف علينا . وبعد فترة من السير توقف حسن عند احدى أشجار الكاليتوس الضخمة تطل على منزل أرملة عجوز ونظر الى وقال فى شبه رجاء :

- بالله عليك تعال نجلس هنا قليلا .

- ألم تقل أنك ترغب فى السير ؟

- اننى أشعر ببعض التعب . دعنا نجلس قليلا .

كان يعلم اننى أكره الجلوس على قارعة الطرقات وتحت الحاحه جلست على مضض وقلت له معاتبا :

- ألم يكن من الافضل لو مكثنا بالبيت نستمتع الى المذيع ونبادل الرأي حول بعض المسائل بدلا من جلوسنا هنا عرضة لانظار المارة وموضع تساؤلاتهم؟
قال :

- يا رجل ، إن أحدا لن يخطر بباله أى شىء ومما قد تكون تفكر به ، علتك يا صديقى أنك تتصور دائما أن الناس جميعا يفكرون بمثل تفكيرك وينظرون الى الاشياء بنفس المنظار الذى تنظر به اليها . لقد شط بك الخيال بعيدا على ما يبدو .

وسكت لحظة ثم عاد يقول بأسلوبه المرح :

- أخوك محروث . يجب أن يعيش .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- ماذا تعنى ؟

- محروث من زول ثريبه دياره

رمت ثلبى بعيونها غداره

لقد قررت الليلة مخاطبتها مهما كلفنى الامر .

- لا أفهم ماذا تعنى ؟

- سأشرح لك الامر . لقد التقيت بها أول مرة عند غالية . لعلك تعرفها . إنها تقيم بالطرف الآخر من الشارع الذى تقطن به ؟

- لا أعتقد أنى أعرفها .

- لا علينا . إنها عجوز فاجرة لا تتورع عن القيام بأى عمل يطلب منها متى قبضت ثمن الاتعاب .

- كيف تعرفت عليها وما الذى يجعلك تتردد عليها بعد أن عرفت حقيقتها!
ألا تخاف على سمعتك ؟

- لقد أجرتها على عمل فراش لى من الصوف .. فراشية يعنى . وصادف
فى اليوم الذى حملت اليها فيه الصوف أن قابلتها هناك ولست أدري كيف
تعلقت بها من النظرة الاولى . ومنذ ذلك اليوم صرت أتردد على بيت غالية
بحجة التعرف على سير العمل بالفراشية .

لقد بهرتنا زاهية بجمالها الساحر الفتان ، بعينيها العسليتين وشفتيها
الغليظتين وبشرتها الناعمة البيضاء . وأردافها الثقيلة . لقد أصبحت أسير
هواها .. صورتها لا تكاد تفارق خيالى لحظة واحدة . وسوف لن يهدأ لى بال
الا متى ظفرت بها .



ARCHIVE

- من زاهية هذه ؟

- أحقا لا تعرفها ؟

- لا .

- أمعقول هذا ؟ إنها جارتك زوج سالم الرجال . لعلك لا تعرفه هو
الآخر ؟

- آه .. لقد شاهدتها بضع مرات عن بعد .. هل هى جميلة حقا كما تقول ؟

- جدا . إنها فتنة للناظرين .

- الى هذا الحد ؟!

- وأكثر .

- الذى أعرفه أنها متزوجة وأم لعدة أبناء .

- ماذا فى ذلك . لو رأيتهما مع أطفالها لحسبتها أختهم الكبرى .

- عجباً لك يا أخى .. من يسمعك وأنت تتحدث عنها على هذا النحو لا
يشك لحظة أنك تعشقها حقا ؟ ألم تفكر فى زوجتك وأطفالك ؟.

- إنى أحبها .

- بل قل إنك تشتهيها .

- لا فرق عندي .

- وماذا تنوى أن تفعل ؟

- لقد شرحت الامر لغالية ورجوتها أن تحدثها برغبتى فى الاجتماع بها .
وقد وعدتنى خيرا لكن يبدو أن الفاجرة لا تنوى الوفاء بوعدها قبل المرور
بها أولا .

- أتعنى ؟

- نعم .

- أليست هى متزوجة ؟

- بلى ولها أبناء . لقد أصبحت أشك فى صدق نيتها ، فى كل مرة أزورها
فيها أحمل اليها بعض الشاي والسكر وخلافه كما كنت أنفجها ببعض المال .
ويبدو أنها استمرت العليمة ووجدت فيها مصدرا للربح الوفير يفوق بكثير ما
ستحصل عليه مقابل عمل الفراش فأخذت تسوفنى وتماطلنى مختلقة لنفسها
شتى الاعذار كسبا للوقت ، ولابتزار المزيد مما يمكن ابتزازه منى خاصة بعد
أن تأكدت من اننى لن أكون لها . لهذا قررت مفاتحة زاهية بنفسى فى الامر .
ولهذا نحن هنا الساعة . فقد تعودت ارتياد منزل حمايتها هذا المواجه لنا فى
مثل هذه الساعة من كل يوم ، وقد اقترب الآن موعد قدومها .

- وأحضرتنى معك حتى أكون شاهد اثبات ضدك فكر مليا يا رجل ولا تكن
متهورا قبل الاقدام على أى عمل قد يعرضك ويعرضنى معك للمتاعب .

- لا تشغل بالك بهذا الامر فلن يحدث شئ من ذلك .

- من يضمن لى ؟

- أنا أدري منك بطباع وأخلاق أهل القرية . وكانت لى معهم تجارب
عديدة . إنهم قوم مسالمون لا يحبون المشاكل وكشف الحال ويكرهون المثول
أمام الحاكم كما يقولون . اذا أنت راودت امرأة من تسائهم عن نفسها فاما أن
تستجيب لك أو أن تلازم الصمت .

- ألا تبلغ الامر الى زوجها أو لولى أمرها ؟

- ألم أقل لك : إنهم لا يحبون الفضائح .

وأحسست بقشعريرة فقد أخذ الطقس يميل الى البرودة وكنت لا أرتدى
غير القميص وقلت لحسن وأنا أهم بالنهوض :

- يجب أن أعود لى البيت .

ويشد على معصمى بكفه الغليظة يمنعنى من القيام قائلا :

- أرجوك .. انتظر لحظة .. لا تذهب الآن .

- لقد بدأت أشعر بالبرد وبالخرج من نظرات المارة والحقيقة انى لا أجد
مبررا لجلوسنا بهذا المكان .

- ألا تراهم جميعا يجلسون هنا وهناك . وفى كل الاوقات تقريبا حتى فى
أشد الظروف الطبيعية قساوة .

- ذلك جزء من حياتهم .

- ونحن لماذا لا نحذو حذوهم فى هذا الامر ولو مرة واحدة على الاقل .

وصمت فجأة . ثم قال هامسا وهو يتطلع الى الشارع :

- إنها هى وربى ..

ألقت باتجاهنا نظرة خاطفة . ثم دفعت باب البيت ودلفت الى الداخل .

ومرت لحظات . ورأيتها تقف خلف جدار السور القصير الذى يحيط
بالمنزل تنظر ناحيتنا وشاهدها حسن بدوره .

قلت :

- وبعد ؟

قال :

- لست أدرى . لقد اختلط فى ذهنى كل شىء .

- هيا بنا إذن .

- قبل أن أكلمها !! لا ...

- فماذا تنتظر إذن ؟

- سأفعل .

وجمع أطراف شجاعته وتوجه اليها بالكلام متبعا أسلوب الرمز والتورية .

وتتهادى إلينا أصداء ضحكاتها المكبوتة .
 ويصيح فى فرح طفولى :
 - أقسم إنها موافقة .

ويحدد لها موعدا للقاء بها فى مساء الغد بيتت خرب مهجور يقع فى أقصى الحى .

ويحين الوقت لنصرف . ونحن نغادر المكان أدخلت يدى فى جيوب سراويلي لأطمئن على وجود مفتاح البيت معي وعثرت معه على قطعة شوينغوم كنت ابتعتها وأخوات لها وعلبة تبغ صباح ذلك اليوم من دكان الحى فقد تعودت أن أوزع على صغار النهج بعض قطع الحلوى أو الشوينغوم كلما جاءوا للسلام علي والترحيب بي . ولست أدري كيف خطر ببالي أن أرميها بها .

وفى مساء اليوم التالى عدت الى البيت اثر انتهائى من عملى ورأيت أن أقوم بفتح نافذة غرفتى المظلة على الشارع ونادرا ما كنت أفعل تحاشيا للتعاليق ودرءا للشبهات . ورأيتها وشقيققتها تقفان خلف النافذة المواجهة لنافذتى .

ابتسمت لى ورفعت يدها تطلعنى على شئى كانت تمسك به بين أصابعها ، شئى صغير لم أتبينه بوضوح . وأطلت برأسها من النافذة وألقت نظرة على الشارع . وحين اطمأنت الى خلوه من المارة قالت بصوت منخفض :

- هل يوجد لديك شينغوم كثير حتى تقذف به الناس ؟

يا الهى فهى التى رميتها بقطعة الشوينغوم ليلة البارحة اذن . وليست زاهية .

وهذه المرأة ! إنى أعرفها فكثيرا ما لقيتها فى الطريق أو وهى داخلة الى بيتها أو خارجة منه . لكن لم يسبق لى أن رأيت نافذتها مفتوحة قبل الآن . وأذكر أن تاجر الحى حدثنى عنها ذات يوم حين جاء لشراء بعض الحاجيات وكنت هناك . قال لى : إن زوجها هاجر الى طرابلس متسللا منذ عام مضى وكلما أراد العودة قبضوا عليه بالحدود التونسية وفى المرة الاخيرة صادروا كل ما كان معه : أربعمئة دينار ليبية ، جهاز اذاعة ومسجل ، أقمشة وملابس

وشاي وأشياء أخرى . وأودع السجن ولم يطلق سراحه الا منذ بضعة أسابيع . وبالامس فقط اكترى جملا وسافر مع احدى القوافل المتجهة الى الجزائر ليحرب حظه فى ميدان التهريب .

لمقد رأيتها عن قرب ، سمراء ، جميلة ، هيفاء ، فى بداية العقد الثالث من عمرها ، فى نظراتها ذكاء وجراءة وثورة وتوق الى الانعتاق .

وانتبهت على صوتها وهى تقول لى :

– هل بقيت معك قطعة شوينقوم . أختى تريدك أن تعطيتها واحدة .

واتجهت بنظراتى الى أختها . كانت تبتسم فى دلال .. صبية حلوة تبدو جريئة لعوبا مثل أختها رغم صغر سنها . لقد سبق أن شاهدتها من قبل هى الأخرى لكن لم أكن أعرف من تكون .

لم أقل شيئا واكتفيت بالابتسام .

وعادت جارتى الى القول :

– ما كنت أحسبك يوما تفكر فى امرأة قروية فقيرة مثل . كنت أهابك دائما .. نظراتك الصارمة . كانت تخيفنى . صدقنى لم أكن أجروء على النظر اليك من قريب .

الواقع أنى لم أفكر فيها ولا فى غيرها . ولست أدري كيف خطر لى أن أقذفها بقطعة الشوينقوم .

لم أكن أقصدها هى . ولم أكن أقصد شيئا على الإطلاق كانت دعابة سخيفة منى ولا شك . لم أكن أتصور أن يكون لها مثل هذا الأثر .

قلت :

– هل أنا مخيف الى هذا الحد ؟

– لست أعنى . ولكنك كنت دائما تبدو جادا أكثر من اللازم .

– هكذا خلقنى ربي ولا حيلة لى فى هذا الامر .

– انى أحب فيك هذه الجدية . والآن وقد تم التعارف بيننا أرجو الا تبخل علينا فى المستقبل برؤيتك والتحدث اليك .

– هل زوجك موجود ؟

– إنه مسافر .

– متى سيعود ؟

– بعد أسبوع على الأقل .

وتنحنى على شقيقتها وتهمس لها ببضع كلمات تغادر الفتاة على اثرها الغرفة ثم تعود متابعة حديثها معى قائلة :

– ماذا كنا نقول ؟

– كنا نتحدث عن زوجك .

– آه . هل تريده فى أمر ما ؟

– إنى أريدك أنت لا هو .

– تريدنى أنا ؟!

– أألم تقولى لى منذ حين أنك ترغبين فى التحدث الى ؟

– هذا صحيح .

– إذن الليلة موعدنا .. سحضر اليك فى ساعة متأخرة اذا كنت لا

تمانعين طبعاً .

– ماذا ؟

– يجب أن نلتقى الليلة .

– الليلة .. الليلة ؟!

– اذا كان ذلك لا يضايقك .

– هكذا بسرعة ولم يمض على تعارفنا غير لحظات ؟

– دع لى مهلة التفكير .

– قلت الليلة ..

– انك جبار .

– موعدنا منتصف الليل . فانتظرينى ولا تنسى ترك باب البيت مفتوحاً ،

واحذرى أن تنامى ..

وحيتها وأغلقت النافذة ، وألقيت بنفسى على الفراش . كيف حدث هذا ؟ وما نهاية هذه المغامرة التى أقحمت نفسى فيها ؟ إنى لا أكاد أصدق ما حدث . ويحل الليل ، وأمضى أقضى الساعات فى المطالعة والتدخين والاستماع الى المذياع وفى ما أنا مقدم عليه من أمر خطير . وقر عزمى على المضى قدما فى المغامرة حتى نهايتها .

إنه الحرمان والاحساس بالوحدة والفراغ .

وتقترب ساعة اللقاء . كان الحى ساكنا سكون المقابر والقمر الاحمر قد أخذ يميل الى الانحدار نحو الأفق البعيد .

وأتمهل أمام بيتها قليلا .. إنها المرة الاولى فى حياتى التى أقرر فيها اقتحام أحد البيوت كاللصوص . ثم أتقدم باتجاه الباب فى خطوات مترددة حذرة . ووجدتها واقفة بانتظارى . دخلت وأغلقت الباب ورائى فى هدوء ومضت تتقدمنى نحو غرفة نومها . الغرفة الوحيدة بالبيت ..

وتنفست الصعداء .. كانت الغرفة شبه معتمة ينيرها مصباح معلق بمسمار بأحد الجدران . مضت ناحيته ورفعت فى فتيله قليلا فانتشر النور فى المكان وبدأت الاشياء أكثر وضوحا . فراش متواضع بسيط على الارض غير بعيد منه صندوق خشبى لحفظ الملابس بعض الاوانى والاشياء استقرت على الارض هنا أو هناك أو علقت على هذا الجدار أو ذاك .

كانت الغرفة بشكل عام تبدو نظيفة مرتبة بعناية . وكان كل شىء فيها يروى فصلا من قصة فقر بليغة مؤثرة .

وقفت انظر حولى فى بلدة وقد اعترانى شعور بالقرف والامتعاض والندم ! ماذا دهانى ؟ وكيف سمحت لنفسى بالاقدام على مثل هذا الصنيع ؟ أوصدت الباب ودعتنى للجلوس على الفراش قائلة :

– تفضل اقعد . وسامحنا ليس لدينا كراسى ولا زرابى الحال كما ترى ، كنت أتمنى أن أفرش لك الارض حريرا ولكن .

قلت أجاملها :

– لا عليك .. كلنا فقراء . والارض كما يقول المثل أنبتت القمح والشعير .

وجلست واحساس بالمرارة يعتصرنى .. ما أبشع الفقر . ومضت الى أحد أركان الغرفة وعادت تحمل كأسا من الشاي قدمته الى قائلة :

- تفضل .. علمت أنك تحب تناول الشاي الاخضر فاعدته لك . لقد فرغت من طهيه منذ قليل . الحقيقة كنت فى شك من مجيئك .

- كيف عرفت أننى أحب شرب الشاي ؟

- هذا سر .

وسكنت لحظة ثم عادت تقول :

- ألم يشاهدك أحد وأنت تدخل الى البيت ؟

- كان الشارع خاليا تماما .

- الحمد لله .

واشعلت لفافة ومضيت أترشف الشاي على مهل . وجاءت وجلست فى مواجهتى وقالت لى وهى تتأملنى :

- ألا قل لى كيف أقدمت فى النهاية على الجلوس تحت الشجرة أمام بيت خالتى وتجرات على مخاطبتى ؟ لن تقدر أن تتصور كم كانت سعادتى عظيمة ليلة أمس ..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كان ما حدث لا يبدو أن يكون حلما بعيد المنال بالنسبة الى . وإنى ألومك على أمرين : أولهما مخاطبتك لى بمحضر صديقك وثانيهما طلبك منى أن أوافيك عند البيت المهجور . إنك أكرم عندى من أن تذهب لملاقة أية امرأة كانت بمثل ذلك المكان . ومع ذلك فقد كنت اعتزم الذهاب الى هناك استجابة لرغبتك .

ولم أعقب على كلامها بشئ . وضحكت من عبث الاقدار . وساد الصمت بيننا لحظات وشرد بى الحيال الى صديقى حسن والى اللقاء الذى جمعنى به الليلة الماضية وما كان منه أثناءه ... وانتبهت من شرودى على صوتها تقول لى :

- تكلم .. حدثنى ..

قلت :

- حدثينى أنت .

ابتسمت وقالت :

– اسمى حليلة .. أما أنت فاسمك .. لا داعى لذكره لك لأنك تعرفه ..

– كيف عرفت اسمى ؟

– انى أعرف عنك الكثير .. لم أكن أتصور أن يجمعنى بك اللقاء فى وقت من الاوقات . من كان يصدق أن هذا يمكن أن يحدث . كان كل أملى أن أراك من بعيد لبعيد . وها نحن الآن ظلًا سقوف واحد .

وشرعنا نتحدث تسألنى حينًا وأجيبها وحينًا أسألها وهى ترد على أسئلتى . حدثتنى عن القرية وأهلها . عن العادات والتقاليد التى تتحكم فى حياة ساكنيها وتوجهها .

وحدثتنى عن نفسها بكل عفوية وصدق . لقد نشأت فى أسرة فقيرة مثل معظم أسر القرية . متزوجة من قريب لها يكبرها كثيرا دميم الصورة سىء الخلق ، فقير بالوراثة ، عاطل مزمى أو يكاد . أكرهها أهلها على الزواج منه منذ أكثر من عامين رغم اعتراضها الشديد حياتها معه خصام دائم وخلاف مستمر . أنجبت له مؤخرًا طفلة وأشارت الى طرف الفراش وتابعت تقول :

– هذه التى تراها نائمة .. أية حياة تنتظرها المسكينة .

<http://Archiveheta.Sakhril.com>

وتتوقف محدثتى عن الكلام وتنظر الى وتقول :

– حدثنى عن بلدك وعن نفسك .

– أنا من مدينة تضم مئات المنازل والبنائات المتلاصقة تتخللها دروب معبدة ممتدة تنيرها ليلا أضواء ساطعة . تنتشر بها المقاهى والمطاعم والمتاجر والفنادق . تعج شوارعها بالسيارات والشاحنات والحافلات ومختلف الآليات . يعمها الصخب والضجيج والازدحام طوال ساعات النهار وجزء من الليل . الجميع فيها يلهثون وراء لقمة العيش ، الرجال والنساء والشيوخ والاطفال وحتى العجزة .. الحياة فيها صراع دائم وسباق لا يتوقف أغنياء فى القمة وفقراء فى الحضيض . وحياتها أعراس ومهرجانات واضطرابات . شرطة وحرس وجنود . منازعات وصراعات ، غالب ومغلوب . تفسخ وانحلال وضياع . تلك هى مدينتى فى كلمات .

أما فيما يتعلق بى فأنا انسان عادى مغضوب عليه موظف صغير من أسرة متوسطة الحال . أعزب وهذا كل ما فى الامر .

هتفت فى دهشة :

- أحقا أنت غير متزوج ؟

- وهل فى ذلك ما يدعو الى الدهشة ؟

- كنت أعتقد غير ذلك . هذا أفضل على أية حال .

- ماذا تعينى ؟

- مذ رأيتك أول مرة رأيت فيك الرجل الكامل ولم يخب ظنى .

- أمن كمال الرجل فى نظرك أن يكون غير مقترن ؟

- المرأة المتزوجة حين تخفق فى زواجها يصبح الزواج بالنسبة اليها خطيئة كبرى ، ولذلك تراها تحرص ان هى تعلقت برجل آخر على أن يكون أعزبا ..

- آراك تبالغين كثيرا .

- ما دمت لم تجرب الزواج . ولم تعرف الفشل فيه فلن تستطيع فهم معنى أن يمنى الانسان بالحياة فى حياته الزوجية ، وخاصة المرأة . ولكن ما لنا وللحديث فى هذا الامر المزعج ولنتحدث فى شىء آخر .

ورأتنى أبحث عن شىء أضع فيه عقب لفاقة فقلت لى فى اعتذار :

- ارمها أنى شئت .. سوف التقطها فى الصباح وأقذف بها فى الشارع .

وعدنا للحديث . تحدثنا عن الفقر والتقاليد الاجتماعية الظالمة فى مجتمع الريف والبادية ، ووضع المرأة فى هذا المجتمع واحساسها فيه بالغبن والقهر والاضطهاد من قبل الرجل . وبما يتخلل حياتها من فراغ عاطفى وكبت جنسى . ويتطرق بنا الحديث الى موضوع العشق والهوى . وتتحرك الرغبة فىنا - تلتهب منا العواطف . ويسود الصمت بيننا فترة من الزمن ، ثم يهدأ فىنا كل شىء وقد شملنا خدر ناعم لذيذ .

وتتكرر لقاءاتنا بعد ذلك . ونتفق على اشارة خاصة تعطيها لى فى آخر ساعة من النهار فى حالة غياب زوجها حتى أذهب لزيارتها فى المساء وفى نفس الموعد على أن أستعمل النافذة فى دخولى الى البيت عوضا عن الباب حيث ستكون بانتظارى لتفتح لى بمجرد أن تستمع الى نقراتى على خشب النافذة تفاديا لما

يحدثه الباب من صرير مزعج أثناء فتحه وإغلاقه ، واجتنابا لبقاء أى أثر لقدمي هنا أو هناك . وتحسبا لآى طارئ قد يمنعها من الخروج عند الفجر لمحو تلك الآثار كما تعودت أن تفعل إثر لقاء لنا .

وأحيانا كنت انقطع عن زيارتها لسبب من الاسباب فأراها فى اليوم التالى كثيبة غابسة متجهمة .

وحين يجمعنا اللقاء تتشدد فى عتابى ولومى وتلقى بنفسها على صدرى باكية ضاحكة كطفلة غريرة فقدت لعبتها المفضلة ثم عثرت عليها فجأة وتهداً ويعود اليها مرحها بمجرد أن أعذر اليها وأعدها بألا يتكرر ذلك فى المستقبل رغم تأكدها من عجزى عن الوفاء بذلك العهد فى كل الاحوال .

وصار واضحا أنها مع كل يوم يمر كانت تزداد تعلقا بى رغم تحذيرى لها من ذلك . وكثيرا ما أفهمتها بأنه من الجنون تصور استمرار علاقتنا الى ما لا نهاية . لكنها كانت دائما ترفض الاصفاء الى وترجونى ترك الحوض فى ذلك الامر .

وذات ليلة ذهبت اليها كالعادة فاستقبلتنى ضاحكة سعيدة مرحة وقالت لى وهى تحتضننى بقوة : <http://Archivebeta.Sakhril.com>

– لقد سافر الله لا يرده .. رجع الى طرابلس . فتحت لى قلبها فى تلك الليلة وأطلعتنى على كل شئ فى حياتها .. اهمال زوجها لها وقسوته عليها وتعمده اهانتها والاعتداء عليها بالضرب اذا هى امتنعت عن مقاسمته الفراش . وكثيرا ما كانت تفعل خاصة بعد تعرفها علي .

وصرت أتردد عليها كل ليلة تقريبا . وفى ليلة عاصفة شديدة الاظلام سعت اليها كالعادة وبعد أن استقر بنا المجلس سألتنى فى شئ من الانزعاج وقد لاحظت ما كان يبدو علي من تهم وانباض :

– ما بك ؟!

قلت فى تبرم :

– هذه الريح الملعونة . إنها تتلف أعصابى وتشير سخطى وتجعلنى أضيق بكل ما حولى .

أغرقت فى الضحك ثم قالت :

- أهذا كل ما فى الامر ؟ كنت أحسب أن حدثا ما قد جد فى حياتك ،
وتسبب فى إزعاجك . إنى لا أقبل أن يكون هذا رأيك فى العاصفة إن حياتنا
هنا مرتبطة بها أشد الارتباط يجب أن تعرف ذلك .

- ماذا تقولين ؟ .

- العاصفة صديقة المحبين وحارستهم فى هذه الربوع . فيها يلتقى الحبيب
بحبيبته دون أن يخشيا عيون الرقباء والفضوليين . وعلى سبيل المثال بإمكانك
فى الليلة العاصفة الحضور الى فى أى ساعة تشاء ، ولا حرج عليك من استعمال
الباب فى دخولك الى البيت حيث لا صرير له يسمع ولا أثر لقدم يبقى .

لولا العاصفة لما وجد أولئك الذين يشتغلون بالتهريب لقمة العيش وما
أكثرهم فى هذه النواحي المعزولة القصية الجرداء .

- هكذا ؟

- نعم .

- يبدو أننى ما زلت أجهل الكثير عن القرية فعلا . لقد قال لى بعضهم :
إن عصف الرياح يكاد لا يتوقف بالقرية طوال فصل الربيع وقد يستمر
عصفها لعدة أيام متوالية دون انقطاع أصحيح هذا ؟ .

- نعم .. ربيعنا عواصف . إنها طبيعة الصحراء المتغيرة المتقلبة .

- هذا فظيع لا يحتمل .

وتنتبه ابنتها من نومها وتشرع فى الصراخ والبكاء بصوت واهن ضعيف
كما هى عادتها دائما . وكم مرة أفسدت علينا خلوتنا . وتميل اليها بشقتها
وتلقمها ثديها وتأخذ فى هدهدتها والهمس فى أذنيها ببضع كلمات رقيقة
ناعمة رجاء أن تذا من لكن دون جدوى . وتنهض فى فورة من الغضب وتندفع فى
سب الصغيرة والدعاء عليها وهى تهزها فى قسوة وغلظة .

ويهزنى شعور من المرارة والانقباض والاشمئزاز . وأقرر الانصراف .
وتمسك بى ملحمة علي بالبقاء قائلة فى توسل وهى تكاد تبكى من فرط القهر :

- متى جئت حتى تذهب . انتظر لحظة .. ستنام عما قليل .. ليته تموت وترى حنى منها . بنت حرام جاءت لتشارك مع والدها فى تنغيص عيشى .

قلت :

- لا تظلمى البنية ولا تكونى قاسية عليها فقد تكون مريضة .

- إنها كالجن .

- أرجح أن تكون مريضة فهى تبدو نحيلة صفراء .

- لقد حملتها الى المستوصف بضع مرات وكانوا دائما يؤكدون لى سلامتها من أى مرض فقط .

- فقط ماذا ؟

- لا شئ .

- ماذا قالوا لك تكلمى ..

أطرقت برأسها الى الارض وانحدرت دموعها على خديها كقطرات الندى على أكمام زهرة برية وقالت فى صوت منكسر <http://Archive.org/details/371>

- كل ما فى الامر أنه لا يوجد بصدرى حليب ..

- البنية جائعة إذن ؟!

- نعم .. انها لا تكاد تنام أو تتوقف عن البكاء بالليل أو النهار .

- هل تحدثت الى الطبيب بهذا الامر ؟

- وما الفائدة من ذلك . ليس بمقدور الطبيب تغيير الواقع حتى وإن أراد ذلك .

- ماذا تعنين ؟

- كيف تريد أن يكون صدرى عامرا بالحليب وكم ليلة بت على الطوى ؟

- الى هذا الحد ؟

-

- لماذا لم تخبريني بذلك .

- ماذا بإمكانك أن تفعل ؟

- ما أقدر عليه .

وفجأة تقلع الصغيرة عن الصراخ والبكاء وتنهض معتمدة على يديها وتمضي تتطلع الي . وتلتقي عيني بعينيها وأحس رجفة تهز كياني كله . لأول مرة كانت نظراتي تصطدم بنظراتها . نظرات عميقة حادة قاسية فيها تساؤل ودهشة وحيرة . أو هكذا خيل الي .

ويعتريني إحساس طاغ بالحجل منها ومن نفسي ، وأنهض وأشرع في ارتداء ثيابي في شئ من العجلة والارتباك .

وتصبح بي حليلة بصوت يقطر مرارة :

- ما لك ذاهب . ألا تنتظر قليلا . كنت أعلم انك ستتضايق لذلك كنت اجتنب دائما الافضاء اليك بأمرى الخاصة لكى لا أثقل عليك .

- لا . أبدا .. فقط شعرت بشئ من الحرج من وجود الطفلة معنا .

- لقد كانت موجودة معنا دائما فما معنى الليلة ؟!

- هذه المرة هى المرة الاولى التى ترانى فيها .

- وماذا فى ذلك ؟

- لقد أقلقتنى نظراتها .

- إنها صغيرة لا تفقه شيئا .

وأغادر الغرفة غير حافل بتوسلاتها هربا من نظرات تلك الصغيرة . ويتهدى الى صدرى صوتها الواهن الضعيف ليزيد احساسى بالمرارة والالام :

- بابا .. بابا ..

وتطوف بخيالى صورة غير محددة المعالم لرجل طوح به الفقر بعيدا هناك وراء الحدود ووجدتنى أردد دون وعى :

(لعنة الله على الفقر) .

ورأيت نفسى صغيرا تافها حقيرا .

كيف حدث كل هذا ، كيف ؟ كيف تخلّيت عن قيمى ومثلى العليا بكل هذه البساطة ؟ حقا ما أسرع ما يتغير الانسان وينسى نفسه . ولم أنم تلك الليلة . وفى زوال الغد بينما كنت عائدا الى البيت على اثر انتهاء حصة العمل الصباحية تناهى الى سمعى صراخ وعويل نسوة يصدر عن أحد منازل الحى القريبة . وحين اقتربت من المكان رأيت بعض الرجال والنساء يدخلون الى بيت جارتى . وسألت عن السبب فقبل لى ان ابنتها توفيت صباح ذلك اليوم .

لم أطرق بيت حليلة بعد ذلك مكتفيا بمساعدتها ببعض المال كلما سمحت لى الظروف . وظلمت أياها أشعر بالحرج كلما التقيت بها خوفا من أن تدعونى لزيارتها لكنها لم تفعل . ومر عام وعدت للعمل بمسقط رأسى وبرغم توالى الايام فما زالت صورة تلك الصغيرة ونظراتها تلاحقنى من وقت لآخر لتبعث فى الاحساس بالتفاهة والحقارة والندم .

محمد الخموسي الحناشي

ARCHIVE

http://Archivebeta.Sakhrit.com

فابس فى 15 - 7 - 1982

ممنوع التصوير : مجموعة قصصية

تأليف : بوراوي عجينة

نشر : دار سعيدان الثمن : دينار تونسى

من أمسيات نادي القصة

رأت هيئة تحرير مجلة « قصص » وأعضاء نادي القصة أن ينشر - من حين لآخر - ما يدور في أمسيات النادي حول بعض الأعمال القصصية ، خدمة للنقد الأدبي في تونس ، وتوسيعا لرقعة الافادة باشتراك قراء مجلة « قصص » في تلك المطارحات النقدية .

وفي الصفحات الموالية رأيان حول رواية مصطفى المدائني الصادرة بعنوان : (الرحيل الى الزمن المدهي) نشر الدار العربية للكتاب بتاريخ شهر سبتمبر 1981 . والرأيان هما لمحمود التونسي (تونس) وعبد الرحمان مجيد الربيعي (العراق) .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

« نوافذ السرداب »

قصة ليحيى محمد

تطلب من النادي الثقافي (ابو القاسم الشابي)

التمن : 750 م تخفيض 30 %

عندما يتصل الامل بالماضي (*)

الرحيل في الزمن الدامي هي قصة شاب يغادر بلدته الصغيرة التي يعيش أهلها من قلع الحلفاء وهم يترقبون المطر . يغادرها الى العاصمة للتعلم . على مقاعد الجامعة يتعرف على « ريم » الفتاة المثقفة والمتحضرة . يعود معها الى بلدته ، تبقى معه أياما ثم تفارقه لتسافر الى الشرق . أما هو فيسافر الى مدريد لانتهاء دراسته . في الباخرة يتعرف أو تقتحمه فتاة إيطالية « باندور » يتعاشران حينما من الزمن ثم تهجره الى مغارة حيث تعيش جماعة من الهيبيز . يتلقى عدلى مصطفى خطابا يعلمه بمرض جده فيعود سريعا الى البلدة ولكنه لا يصل إلا في اليوم الثاني بعد موت جده .

هذا هو المحمل الزماني والكاني المباشر لهذه الرواية ولكن هذا المحمل يتكشف شيئا فشيئا بأزمة وأمكنة أخرى وكذلك بأشخاص آخرين . يقع هذا التكثيف أولا عن طريق الذاكرة لكي يلج عدلى مصطفى زمن طفولته . ثم عن طريق الذاكرة الشعبية بالرواية الشفوية التي تريد أن تعمر الحيز الذي يحتله الماضي في الحياة الحاضرة لعدلى مصطفى ولأهل البلدة . وهناك أيضا الوثيقة التاريخية المكتوبة والتي تدون الشهادة أو السيرة . من خلال هذه الوثائق يحيى أناس من الماضي مثل : زهران الامير ، وسلوقي عمار ، وابن الهيثم ، وتلقى بعض الاضواء على جوانب من حياة زركويه .

هذه الرواية تبدو وكأنها ليست مجموعة من الاحداث المترابطة أو المتسلسلة في الزمان والمكان . بل كأنها مجموعة من الاحداث حول رغبات غير واضحة وتأمل في الماضي ، أو التاريخ بمنظار الخرافة والشعر .

(*) تعليق على رواية « الرحيل الى الزمن الدامي » لمصطفى المدائني .

حركة بسيطة فى المكان من المدينة الى القرية يداخلها عبر الذاكرة الخط المعاكس من القرية الى المدينة ، ثم سفر الى مدريد ، ثم عودة الى القرية . عدلى مصطفى هو الذى يرسم هذا الخط المغلق عبر تحركه فى المكان . عندما يتحرك عدلى تتحرك معه رغباته الغامضة . لم نر فيه شيئا صادقا أكثر من حبه للبنات رغم أنه يؤول رغبة الجنسية تويلا فكريا مبطنا بالاهداف السامية . فيطمس منها صدق الاحساس والحرارة الانسانية . فعلاقته بريم فيها كثير من التبركة ، تبدو أحيانا كعلاقة مراهقة ، وأحيانا أخرى كأنها علاقة عبر الفكر بأنه وذج من المرأة وليس بامرأة بعينها .

- (أحببت والقلب مني يهو الى المجهول « لنبارك هذا التعارف » .

- فرمقتها بأمعان علي أسبر أغوارها ...

- استدرجتني الى تحقيق هذه الرغبة وهى البحث عن التاريخ الضائع .

- بهيام تعمقت فى عينيها بحثا عن الذى ما كان يجب أن يكون) .

هذه الجمل توضح لنا كيف أن عدلى حب ريم لا لذاتها وانما لاشياء أخرى . فهو معجب بوالدها وبأمها ولعل به فى النهاية حيننا الى طبقتها الاجتماعية بكل مستوياتها الثقافية والاقتصادية .

<http://Archivebeta.sakini.com>

علاقته بالايطالية . نفس الشيء تقريبا فعلاقته بها ليست الا تعلقة ليتحدث عن دانتى والجوكندا وموزار وزوربا الى غير ذلك من أسماء المدن والاعلام التى يعتلها كعنوان لثقافته الواسعة وذوقه الرفيع . وتنته العلاقة بالفشل الذى لا يبرره الا انطق الرمزي للرواية الذى يجعل من عدلى مهمتها بالبحث عن (الجذور) وبالتالي فهو رافض للحياة على النمط الغربى . أما علاقته بخديجة فهى العلاقة الوحيدة فى كل الرواية التى استطاعت أن تكون خيطا فنيا رفيعا ، لانها علاقة فيها صدق مستمد من براءة الطفولة ، إنها علاقة غائبة وحاضرة فى نفس الوقت ، ومن حيث التركيب فهى تشبه علاقة التناظر بين عدلى مصطفى وزركويه .

ان الابن الذى يذهب للدراسة فى العاصمة ويغادر الذين يقتلهم الحلفاء بأيديهم ، يعرف يقينا أن الآمال التى يعلقها عليه أهله فى المستقبل هى أثقل من الآمال التى يعلقونها على زركويه فى الحرافة وليكن زركويه أنموذجا

للثائر وله بعده التاريخي فهو في أذهان أهل البلدة بطل خرافي وذلك هو بعده الاجتماعي الحقيقي . عدلى مصطفى أراد أن تكون سيرته انجازا للمدينة العادلة العالية وطرحا جديدا للتاريخ فتمائل مع البطل الخرافي وناقش التاريخ من منطلقات خرافية . إن عدلى لم يكن في الرواية - أنموذجا انسانيا متكاملًا ، وفي كلامه زيف واضح وكنه خلق ليفكر ويفهم لا ليحيا ويعمل وبالتالي يفكر من أجل الحياة والانجاز . ففي كلامه على طول النص تتردد جمل حتى أصبحت مملة : (محاولا أن أسبر الاغوار الدفينة) : (استقصاء الحقيقة هو المطمح) (لعله البحث عن المسار التاريخي) فهذه المعانى من كلام عدلى أصبحت علامة مرضية .

هناك مجموعة أخرى من الملاحظات من المفيد أن نسوقها منها :

- إن هناك محاولة للاهتمام بالمحسوسات خاصة عن طريق حاسة النظر ولكن - البحر والزرقة والظلام والامتداد هذه المحسوسات وغيرها تصبح في النص رموزا وتصبح محبوسة في الكلمات التي تدل عليها فتوحى بفكرة أكثر من أنها تشع باحساس . فهناك ذهول عما هو محسوس وليس هناك احساس مباشر بالمادة .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

- هناك سذاجة نستشفها عبر العديد من الجمل مثل (النجوم وكأنها تبوح) .

- هناك جمل أقوى من الوعي العام في كامل النص وهى بين ظفرين مثل (صياغة مضمحلة ولا أسف) .

- النص في مجموعه له صياغة شعرية طاغية على النفس الحكائي .

- الحوار غالبا ما يتلون تلوينات رومنتيقية .

- إن شخوص الرواية تتعاكس داخل بعضها البعض كالمرايا فتكون الارتباطات المشتركة بينها كالمناهة مما أضفى على الرواية نبرة حديثة متميزة بتشعب العلاقات وتداخلها ولكن الكاتب لم يتمهل في حياكة هذا النسيج .

محمود التونسي

قراءة في رواية تونسية جديدة : الرحيل الى الزمن الدامي

- 1 -

هذا واحد من الاصوات الجديدة في الرواية التونسية . بدأ بنشر بعض القصص القصيرة والكتابات النقدية حتى كتب روايته الاولى (الرحيل الى الزمن الدامي) . انه الاديب مصطفى المدائني الذي ينتمي زمنيا الى مرحلة السبعينات .

ARCHIVE

- 2 -
<http://ArchiveBeta.Sakhrit.com>

ان الكتاب الاول غالبا ما يشير الى أهمية واصالة أى صوت أدبي وليد ، ورواية المدائني (الرحيل الى الزمن الدامي) تؤكد اننا امام موهبة غير اعتيادية في كتابة الرواية ، موهبة من شأنها اذا ما استمرت وتنهأت الظروف الملائمة ان تعطى أعمالا ذات شأن بالتأكيد في مسار الرواية العربية عامة وفي الرواية التونسية خاصة والتي ما زالت تعاني من الفقر والشحوب .

- 3 -

ان قارئ رواية (الرحيل الى الزمن الدامي) سيعايش عالمين ، أحدهما واقعي معروف ويتمثل في عدلى مصطفى وحبيته ريم الفتاة العصرية المتحررة ، وحبيته الاخرى خديجة ابنة قرينه وقرينة طفولته وصباه ، ثم الفتاة الاسبانية التي التي يتعرف عليها اثناء رحلة الى اسبانيا ، ويغرق في هواها بسرعة وكذلك الحياة في القرية .

أما العالم الثانى الذى سيعايشه قارئ الرواية فهو عالم اسطورى ، حلمى ، يتمثل فى شخصية « زركويه » جد الشخصية الرئيسية فى القصة عدلى مصطفى .

ولكن السؤال هل كان المؤلف موفقا فى الربح بين هذين العالمين ضمن حركة روايته ونموها واستمراريتها ؟

اننى لا أسجل الرد بهذه السرعة ، ولكننى أحاول أن أستشفه وأتوصل اليه من خلال بضعة ملاحظات سجلتها على هذه الرواية وأدرجها فيما يلى :

I - لم تكن علاقة عدلى مصطفى بريم ولا بالفتاة الاسبانية مقنعة ومبررة ، فالاولى تراه فى الصف وتعجب به رأسا حتى وقبل ان تبدأ معه أى حديث ، وتمضى معه بعيداً ، تدعوه الى حفلة عيد ميلادها ، وتعرفه على أبويها ، ثم تسافر معه الى قريته ، هكذا بسهولة ، دون أن نعرف أى امتياز فى شخصية عدلى مصطفى هذا جعل هذه الفتاة المترفة المحاطة بالعشرات تنقاد فى علاقتها معه بهذه السهولة .

ونفس الشئ حصل مع الفتاة الاسبانية القادمة من أقصى الشرق بعد أن امضت هناك رحلة مع مجموعة من زملائها ، وفور أن تقع عينها على عدلى مصطفى تحبه ، وتنسى الآخرين الذين معها ، وتقيم معه فى فندقه ، وتأخذه فى رحلة الى الجنوب الاسبانى ، الى ارض الاندلس الحالدة .

هاتان العلاقتان اجد انهما ينقصهما التبرير والاقناع ، ثم لا أدري لم انتهتا بسهولة مثلما ابتدأتا دون أن نمسك بالسبب فى ذلك :

الفتاة الاسبانية تبقى فى بلدها بعد أن قرر العودة الى بلده اثر سماعه نبأ مرض جده - ليس زركويه . وفى طريق العودة تقفز خديجة الى ذاكرته وتنشاد مشاعره المحلقة عنها دفعة واحدة .

وريم تتزوج من شخص آخر لانه حدثها عن (زركويه) ، فأين عدلى مصطفى اذن ؟ وهو أول من حدثها عنه ، وهو حفيده فوق ذلك ؟ وما المبرر لهذا الزواج ؟ ولماذا تخبر عدلى مصطفى به ؟

2 - ان علاقة مصطفى بخديجة علاقة مبررة ، فيها أوليات ، ولها ظروفها التي أنضجتها ، وبدلاً من ان يستمر فيها نراه يتى بريم الى القرية ، والتي تكتشف - ولا أدري كيف ؟ - حب خديجة له أو حبه لها .

ومن الملاحظ ان هناك خديجتين فى الرواية ، احدهما زوجة زركويه والاخرى هذه الشابة التي تحب الحفيد ، فهل أراد المؤلف ان يقول ان روح وسيرة زركويه قد تجسدت فى الحفيد ؟ ولكن هل يكفى للبرهنة على ذلك اطلاق اسم واحد على زوجة الجد وحبيبة الحفيد ؟

3 - لم يستمر المؤلف ابطال روايته بشكل كاف من شأنه ان يغنى الرواية ، ونرى هؤلاء الابطال مجهضين ، ناقصى النمو ، ولم يأخذوا مداهم الكامل . من كان (زركويه) ؟ ومن كان عدلى مصطفى ؟ أو ريم ؟ ما هى تركيبتهم ضمن معادلة الرواية وموازناتها ؟

ان مقتل الرواية ونقطة ضعفها كان فى أشخاصها ، ولكن حياتها وتدفعها كان فى بنائها ولغتها ، كيف ؟

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ان المؤلف يجمع بحذق ما بين العالمين اللذين تحدثت عنهما الواقعي والاسطوري ، وهما يتداخلان ليكونا عالماً واداً ، وقد يبدو لنا تأثيره واضحاً بتركيبة روايتين معروفتين احدهما علمية وهى (مائة عام من العزلة) لماركيز والاخرى عربية وهى (موسم الهجرة الى الشمال) لطيب صالح ، ولعل تأثيره بالاولى تمثل فى محاولة النسج الملحمى والشعرى ، أما فى الثانية ففى العلاقة ما بين الشرق والغرب ، من خلال القرية الشرقية - لا المدنية - بكل طقوسها البدائية وعواطف أناسها البكر ، ولعل تسمية مصطفى المدائنى لبطله بعدلى مصطفى يذكرنا ببطل رواية (موسم الهجرة الى الشمال) مصطفى سعيد .

- 5 -

ان لغة المؤلف فى (الرحيل الى الزمن الدامي) شعرية ومتناغمة ، تجعل ايقاعها ناعماً ومنساباً لا يخدش الأذان ، ولا يسقط فى التقريرية ، وهى بهذا تنتمى الى لغة الروايات العربية الحديثة المعروفة .

كما ان بناءها هو بناء نستطيع ان نقول عنه بأنه جديد وان لم يتميز بتفرده ، اذ هناك فصول ، كل منها يحمل اسما ، ويروى بضمير ، ولعل الغاية من ذلك هو تناول الحدث الرئيسى ، وهو البحث عن ذكرى (زركويه) ، ومن كان ؟ من خلال عدة أشخاص ، وفي أعمار مختلفة .

- 6 -

اذا كان محور الرواية هو البحث عن زركويه فأننا ننتهى منها دون أن نصل الى هذه الشخصية ، ولم تفلح مجموعة الانطباعات والاحكام التى وزعت على صفحات الرواية ببلورته وتحديد ملامحه ودلالته .

وبعد ، فإن لهذه الرواية مكانتها التى منحتها لها رغبة كاتبها وطموحه فى أن ينضم الى موجة المحدثين لا موجة المجترين وهى مع رواية محمد صالح الجابرى (البحر ينشر ألواح) ، ومع رواية (دهاليز الليل) لحسن نصر ، ورواية (الحركة وانتكاس الشمس) لمحمد الهادى بن صالح ، انما تشكل البشارة لولادة جديدة للرواية العربية فى تونس نأمل لها ان تفتنى وتتواصل بأسماء وأعمال أخرى .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

عبد الرحمان مجيد الربيعي

لنبحث معا عن العنوان

بلعت ريقى أتلذذ ما بقي فى فمي من سائل إنه حلو ... حلو ... الى آخر قطرة فى فمي ... حلو ... الى درجة الصمت . كيف لا ، وهو أحلى النسيان ...

وضعت يدي على الحائط فأندفع ما فى بطنى . هذا الذى كنت أتلذذه صار الآن مبعث تقزز . تقيأت كثيرا ... كثيرا ... حتى فرغ بطنى .

رفعت يدي من على الحائط . تنفست بعمق . ما أطيب هذا النسيم . كان الفصل شتاء والوقت يقرب الى الصباح أكثر منه الى الليل . لا أذكر الوقت بالتحديد . كل ما أذكره أننى خرجت الى الشارع أستمتع ببقايا ملذاتى . كانت ليلة اجتمعت فيها بالأتراب فحضرت الخمرة . تذكرت الحياة ... انغمسنا فى شرب الخمر لنعيش .

نظرت الى ما خرج من بطنى بتمعن ففكرت : نفسى وخطر ببالى خاطر قررت تنفيذه منذ ذلك الحين .. لا يهم ان كنت قد نمت أم لا ... ولا يهم ان كنت أحسب من الطاهرين لديهم .. فقط كل ما يهمنى تنفيذ ما خطر ببالى .

تنفست بعمق أكثر فشعرت برائحة التنفيذ . دخلت المقهى حيانى النادل بتحية الصباح فبادلته بالمثل . طلبت قهوة فاعتذر لأنها لم تحضر بعد . جلست على الكرسي أنتظر . فنمت .

رأيت - وأنا نائم - رجلا طويل اللحية . أبيض اللباس . متوسط القامة رأيته يشير الى المجيء فذهبت . طلب منى أن أجلس ففعلت . أمرنى بالاستماع اليه فأمتثلت .

قال بصوت غليظ : إياك والتردد . إياك والتردد ...

قلت بصوت ضعيف : لقد قررت فكيف أتردد !؟

قال : قاسم الناس فى رأيك ... وخاطبهم فى عفوك .. ولا تؤاخذهم فى غضبك ...

قلت : إنك تقلب المفاهيم . عليك أن تقول : خاطبهم فى حقك حتى لا يكون لهم عليك سلطان ولا تؤاخذهم إن هم غضبوا من غضبك ...

قال : انك بهذا القول سيغلبك التردد ... اعزم على ما قررت . واحسم انقلاب المفاهيم على المفاهيم فقد يكون لك شأن عظيم ...

قلت : دع الجاه جانباً فاننى أرفض الحياة به .

قال : لا يغرنك حماس البداية .

قلت : من أنت ايها المتهمك ؟

قال بصوته الغليظ : أنا شيطانك الرجيم المحبب الى النفوس .

قلت : لقد شققت عصى الطاعة التى كانت تربطنا .

ضحك ضحكة أغلظ من صوته : فأرتعدت فرائصى ... وصمت ...

قال النادل : هذه قهوتك قد حضرت فيومك سعيد .

قلت وأنا أفرك عيني بيدي : ويومك أسعد يا عمى سعيد .

شعرت بدوار كبير فى رأسى فشربت القهوة بسرعة . ثم طلبت قهوة ثانية وشربتها ... ثم ثالثة وشربتها ... لكن الدوار لازمنى . دفعت الى النادل بسخاء وخرجت الى الشارع .

كان ضوء النهار قد طلع . فبعث الحياة فى المدينة بخروج الكادحين من منازلهم للذهاب الى أعمالهم . لم أتبين الطريق جيداً فوقفت . نظرت الى يمينى فلم أر شيئاً . نظرت الى يسارى فاذا الاخضرار . آه ... ما أجمل الاخضرار زمن طلوع الصباح !! قلت ذلك فى نفسى فوقعت على العشب . اننى داخل حديقة عمومية ولا خوف علي من الاستسلام الى النوم . عينت مكاناً لا يرانى فيه الحارس وامتددت فيه مستسلماً الى النوم ...

لا أدري كم ساعة نمت ... ولا كم يوماً . كل ما أعرفه أن الدوران ذهب عني وأبني أشعر بجوع كبير . هذه بطنى خاوية . حملت جسدى وأفكارى وارتفيت فى الطريق أبحث عما أصنع به خبزاً لبطنى فلم أجد غير النظر

والصبر . وقفت أمام واجهة من البلور فاذا لحيتى قد طالت . ربما كانت طويلة قبل أن أنام . لكننى لم أتفطن الى طولها الا الآن ...

أطلت الوقوف فقالت لى حسناء . خرجت من وراء الواجهة :

– تفضل خذ هذه وانصرف ...

نظرت الى ما وضعت فى كفى فاذا هى بعض مليمات . رفعت نظرى اليها وحدجتها بنظرة ثاقبة فرميت النقود أمام رجلها . وبصقت على الارض ثلاثا . أولى للحسناء . وثانية للنقود . وثالثة لى ... ثم واصلت سيرى ... انها بداية الطريق ...

تذكرت ما عزمت على تنفيذه فسمعت ضحكة الشيطان . لكن لماذا ترانى تأخرت عن تنفيذ ما قررت ؟ ربما لعدم معرفتى آخر الحكاية ترانى قد رفضت بدايتها ... ربما ... وربما أيضا بسبب الضحكة ...

هذا الجوع يقطع أحشائى فماذا أفعل ؟

نظرت الى مفترق الطرق فاذا خبزة وسط أربعة ثنايا . انحنيت اليها فاذا هى مطلية بالزيت . ربما وضعها مريض حتى يشفى من مرض الحاسد ... والعين الشامتة فيه ... و ... و ...

إننى جوعان ولا يهمنى أين تنقل المرض الي أم لا . كل ما يهمنى هو أن أشبع . ثم فليأتى المرض إن كان لا بد منه .

بعد أن انتهيت من التهام الخبزة تذكرت منزلى ... ترى كيف حاله الآن ؟

وجدت نفسى مندفعاً للذهاب اليه ففعلت . بعد أن مدت المفتاح من جيبى فتحت الباب ودخلت . فاذا هو كما تركته . هذه الزاوية التى كان يلعب فيها عماد . وتلك هى الدروس التى صنعتها عائدة من أربعة أعواد زيتون ثم زينتها بأجمل ما تملك . فكانت عروساً رائعة .

نظرت الى فراشى طويلاً ثم جلست على الحصر التى كانت بجانبه ... آه ... ما اقصر حياة البشر ! بالأمس فقط كان عماد يلعب أمامى واليوم سافر الى ما وراء البحر فتزوج واشترى سيارة ثم نسينا ... آه ... معه حق فقد صار

أبا .. وله مسؤوليات كثيرة .. وفقه الله على كل حال .. وعائدة .. آه ..
 خطفتك منى صرخة الدماء فنمت .. يرحمك الله .. آه .. ماتت أمك حسرة
 عليك ... ماذا فعلت حتى تذبحي ... ماذا اجنيت حتى تذبحي ليحصل قاتلك
 على كنز مدفون تحت التراب ... آه ... آه ...

بكيت كثيرا فزاد عنادى ... سأنفذ ما قررت .. سـ ... أنفذ ..

نهضت من مكاني مسرعا . فارتديت ثيابا بيضاء . والسكين الذى ذبحت به
 ابنتى فى مخيلتى . لا بد أنها توسلت اليهم كثيرا ... ربما بكت .. لا .. لا ..
 انها لا تبكى .. البكاء هزيمة البكاء للأطفال .. أما هى .. فهى طفلة
 عظيمة ... هى طفلة عادية جدا حد الذبح ...

حملت بياض ثيابى على أضلعي ... ودم ابنتى فى مخيلتى واتجهت نحو
 الجامع .. قد أكون مخطئا فيما أفعل ... لكن يكفينى ما رأيت من احمرار ...
 نعم اننى أهرب .. أشرب سائلا أحمر .. وأتقيا قيئا .. أحمر .. وأحمل فى
 مذكرتى خيال ابنتى . أحمر .. و .. و .. و ..

أسلمت وجهى الى الله علني أنسى احمرار دم ابنتى ... دخلت المحراب
 ببياض ثيابى واحمرار دم ابنتى فرفعت يدي وقلت : ... الله أكبر ... فرأيت
 الدم يسيل من السكين ... قرأت الفاتحة فحضرت بثياب بيضاء .. والابتسامة
 لم تفارق وجهها ... أردت تقبيلها فهربت .. قال لى واحد من الحاضرين :

... لقد فسدت صلاتك بالحراك ... أعدها ...

امثلت لامره . وفعلت مثل المرة الاولى . فحضرت ابنتى بابتسامتها .
 ركعت فاقتربت أكثر ... سجدت فقبلتها بعد أن قبلتنى ... قالت : قاسم
 الناس علمك ... وشاورهم فى رأيك ... ولا تحملهم ما لا يطيقون ...

قلت : لكن من أكون ؟ من أكون ؟

قالت : اناك ولى من أولياء الله الصالحين ...

قلت : هذا كثير .. كثير على من كان بالامس لا يستطيع تحديد المصير ...

قالت : رفعت الاقلام .. وجفت الصحف ...

جلست فابتعدت عني . أعدت السجود فقالت : اياك واللغو ... فانه لم يضل
من قبلك الا بكثرة الكلام ... أوجز في القول ... وأكثر من العمل ... وشرك
قومك فيما تجني من ثمار ... الدنيا لا نملك فيها بل نعيشها ... فالملك ملك
الله ... والثمرة للبشر .

جلست فظهرت الدموع على خدي . انها التي كنت أرى دمها ... تعلمني ...
قال لي آخر من الحاضرين ... لقد فسدت صلاتك بالدموع ... فأعدها ...
امتثلت لامره . فرفعت يدي أكبر .. وركعت .. ثم سجدت .. ثم ركعت ..
وسجدت .. مرات .. مرات .. لكنني لم أر ابنتي ..

اتكأت على أحد سوارى الجامع وأطلقت العنان للبكاء . فرأيت لون دموعي
أحمر .. إنها دموع الدم .. ربما كان هذا الدمع هو الدم الذي سال من جسد
طفلي العظيمة ... ربما ...

اقترب مني شيخ كان ينظر الي منذ دخلت وقال لي :

- مالى أراك تبكى منذ دخلت ...؟
- انها دموع الفرحة بقاء أضرحة الاحبة ...
- من يفرح للقاء الاحبة لا يبكي دما ... بل وردا ...
- إنها الدنيا لا يستقر لها حال ... فأحبتني فى داخلي قد أهرق دمهم ...
- ورؤد أحلام طفولتنا مسحنا بها الاحذية ... فلا تبك على ما فات ...
- لست أبكى ... البكاء مهزلة ... أنا كيف أبكى ولى طفلة أهرق دمها
من أجل كنز دفين ... أنا كيف أبكى وقد أعلمونى فى سجودى أننى ولى من
أولياء الله الصالحين ... أنا لست أبكى لكنه دم طفلي يسيل من داخلي ...
- دم الاطفال الذى أهرق هو زهور كهولتنا ...
- عندها اتجهت نحو المنبر . ووقفت فى الناس خطيبا :

« ... أوجزوا فى القول ... وأكثروا من العمل ... فالزهور التى كانت
تزين بساتيننا صارت كلما تطلع الا نمسح بها الاحذية ... فلتكثروا من
العمل ... فبالعمل نجتمع الدماء التى نريد أن نسقى بها حقولنا حتى تنبت لنا
ورودا ... وإياكم والقلق ... فهو مبعث الكسل ... عليكم بحلب الامهات ..

وترك المذات... واجتناب السيئات... والتشاور في الامر... احذروا يوما
لا ينفع فيه رزق شجراته... ولا وادى ماء يسقيه... ولا احمرار خدود...
يوم لا ينفع الا ما كسبنا من ورد... فما رأى اخوانى الذين أتبعتهم القيود...»

أجابوا بصوت واحد : ... آمين ... آمين ...
قلت : فلنبداً - إذن - فى تنفيذ ما كنا نقول ...
قالوا : الدين النصيحة ...

قلت : أدوا الفرض وانقبوا الارض ... ثم إياكم والقلق ... فهو من علامات
القلق ...

قالوا : ... آمين ... آمين ...

اتهمنى بعض من كان يعرفنى بالزندقة • كان همهم الوحيد فى هذه الحياة
جمع المال • وكنت نديمهم • ففاضهم ابتعادى عنهم دون استشارتهم فقالوا :
هذا والله روح الزندقة ...

اغتاظ أنصارى لما سمعوا فقالوا بصوت واحد : انهم كفر • والكافر حكمه
القتل • فقلت ... لا ... فعلامة الايمان الرحمة ... وأعلموا انهم يوم الحشر
مصلوبون ... فمعبودهم تحت قدمى ...

ضحك واحد منهم ضحكة هستيرية وعالية ذهبت بعقله •

فقال أنصارى : ... هذه من بركات صاحبنا ... فأحذروا غضبه ...

خرجت الى الشارع وتنفست بعمق فرأيت صاحب اللحية الطويلة الذى
شاهدته فى منامى يكسر أغصان الزيتون •

قلت : ما هذا الذى تفعله بأغصان الزيتون ...

قال : ان فى تكسيرها لصوتا رائعا يشدو له البال ...

قلت التكسير رفض للحياة ... فلم أنت تكسر أغصان الزيتون بالذات ...

قال : وأزيد فمأكلى قلوب الحمام ... وشرابى دم الانسان ...

قلت : إن هذا هو البلاء المبين ...

قال : ... بل هو أجمل من جمع المال ... بل هو أجمل من جمع المال ...

ثم قهقه بصوته الغليظ قهقهات طويلة وغاب ...

وصلت الى منزلى فوجدته كما كان عروسا من أغصان الزيتون وزاوية فارغة الانسان . وكان كل من يعترضنى يسرع لتقبيل يدى طمعا فى بركاتى فأضع يدى على رأسه وأقول :

« ... اللهم اجعل ورده مزروعا ... ودمه محفوظا ... وزيتونه مصونا .. »

لم يكن للناس فى تلك المدينة الصغيرة من أملاك الا شجر الزيتون لذلك كنت دائما أدعو لهم بصيانتته . لانه الوحيد الذى سيساعدنا على زرع الورود ... وكسر القيود ...

وصلت الى منزلى فوجدته كما كان عروسا من أغصان الزيتون وزاوية فارغة من ولدى وصورة السكين الذى ذبحت به ابنتى لا تفارق مخيلتى .

وضعت منديلا نظيفا فوق عروس أغصان الزيتون . كبرت بصوت مسموع . ثم قرأت الفاتحة فرأيت ابنتى والابتسامة لم تفارق ثغرها . أحسست على غير عادتى بفرحة عارمة تجتاحنى وأنا أرى ضحكتها ... فطرق الباب ثلاثا ...

ذعرت أول الامر ثم قررت مواصلة صلاتى . فأعيد الطرق ثانية وثالثة و ... و ... بأعنف مما كان ... فلم أجد بدا من فتح الباب ..

دخلت منه امرأة متوسطة العمر فارتمت على يدى تقبلها . وضعت يدى الاخرى على رأسها ثم قلت :

اللهم اجعل وردك مزروعا ... ودمك محفوظا ... وزيتونك مصونا ...

قالت : مطلبى أكبر يا سيدى ... فادع لى ...

قلت : الدعاء من الله ... هو وحده مجيب الدعوات ... فتفضلى بالجلوس أولا ...

جلست قبالتها . كانت امرأة سمراء اللون . فحمة الشعر . عسلية العينين . متوسطة الطول جميلة المضحك . وأحسست بقشعريرة تغمرنى فقلت : ما هى حاجتك التى تفوق قيمة زرع الورود ؟..

قالت : وهى تغطى وجهها من الحجل : ... صناعة الاطفال ...

فقلت وقد شعرت بالقشعريرة أكثر : ... لا حياء فى الدين ... أفصحى
عن رأيك ...

قالت : ... تزوجت منذ خمس سنوات ولم أنجب . ذهبت الى أغلب الاطباء
بدون جدوى حتى نصحنى بعض أصحابى بالمجئ اليك ...

قلت : هل تسمعين أحلام زوجك وهو نائم ...

قالت : بل : أنام أحرسه لانه يعمل باكرا ... لذلك فأنا لا أسمعه ...

قلت : عليك بتخفيف الثياب ... وهدم القباب ... والوقوف على الاعتاب ..

...؟؟؟؟، ففعلت !!!

قلت : والآن ضعى شهقة بين نهديك ... وصرخة بين عينيك ... وقسوة
تحت قدميك ...

...؟؟؟؟، ففعلت !!!

عندها حملت من الارض ورقة كتبت فيها : ... اللهم اجعل الورد يصنع
الاطفال ... بجاه نبيك عليه الصلاة والسلام ... ثم قدمتها اليها وأمرتها
بشربها قبل أن تنام ...

ارتمت المرأة على يدي تقبلها ... فجذبتها بسرعة قائلا :

... من يتمنى صنع الاطفال لا يقبل الايدى ...

نظرت الي المرأة طويلا ثم خرجت أجمل مما أتت . ففرشت منديلي على
الارض وكبرت . ثم قرأت الفاتحة فرأيت ابنتى ... ركعت فأقتربت منى ...
سجدت فقبلتنى وهى تقول :

... افتح بيتك للزائرين ... وقلبك للعاملين ... وأرسم خطواتك من ضيعة
الزيتون ... وأجعل الاطفال ثمرة الشجر ... وسترى كيف أنه سيخجل
القمر ...

قلت : وماذا أقول عن دمك المسفوح من أجل كنز دفين ؟

صمتت .. صمتت حتى غابت .. فبكيت .. وكان دمعى كالعادة دما ..
فانقطعت عن البكاء ... ونفذت ما طلبته منى طفلى العظيمة ..
أصبح منزلى منذ ذلك اليوم محط رجال المتبركين بكراماتى .

وصرت لهم ناصحا ... كانوا جميعا يسألوننى عن كيفية صنع الاطفال
فأجيبهم . وعن درجة جهدهم فى العمل فأشكرهم . وعن زمن قدوم ربيهم
فأبشـرهم .

كنت فى كل يوم أرى فيه ابنتى فى سجودى تزداد ضحكتها الا ينشرح
صدرى أكثر ... والاطفال ثمرة الشجر ...

سمعنا الديك يؤذن لطلوع الصباح فابهجنا . وأنطلقنا جميعا صوب الضيعة
وأنا فى مقدمتهم أهلى وهم يرددون ما يسمعون حتى وصلنا ... يا لروعة
ما رأينا !!!

صحت بصوت غليظ : .. الله .. الله .. الله يا دنيا !!

فرايت صاحب اللحية الطويلة الذى رأيته فى منامى يطلق ضحكته الغليظة .
لقد ولدت تلك التى أتت تسألنى عن كيفية صنع الاطفال فأمرتها بتخفيف
الثياب ... وهدم القباب ... والوقوف على الاعتاب ... لقد نفذت ما طلبته منها
فاستجاب الله لدعائها وولدت ... لكنها لم تلد طفلا ... بل ولدت وردة
حمراء ... حمراء قانية ...

تقدمت من المرأة رويدا ... رويدا ... فمسحت رأسها بيدي واستنشقت
الوردة وهى تحضنها ثم نظرت الى فوق فرايت ابنتى وضحكتها لم تفارق
ثغرها ... أحسست باشتياق كبير الى طفلى فقبلت الوردة ...

عندها سمعت الحاضرين يصيحون :

... أسرع يا شيخنا ... أسرع يا شيخنا ... مريض يطلب معونتك ..

تركت الوردة الحمراء حذو أمها وانطلقت مع بقية الحاضرين نحو منزلى .
حين وصلت وجدت طفلة صغيرة تشكو اختبالا فى عقلها كانت تشبهنى
كثيرا .. لا .. بل تشبه طفلى .. ونظرت الى والدها فاذا هو ولدى ...

لم أكلمه بل حملت الطفلة ودخلت بها بيتي لاعالجها .

... دمك الذى أهدر من أجل كنز دفين داخل الارض لم تشربه الارض ..
عروسك التى صنعتها من أغصان الزيتون لا تموت ... أمك ماتت هذا
صحيح . أما الاطفال فانهم لا يموتون ... منذ حين فقط ولدت المرأة وردة
حمراء ... استنشقت رائحتها فرأينا .. قبلتها فاعلموني بأخبارك .. لا ..
لا .. أنت أعظم من الاختبال يا طفلى العظيمة ..

وارتميت فى أحضان الطفلة أشبعها تقبيلًا وهى تضحك ... شعرت بكل
رائحة الدنيا وأنا أضمهـا الى صدرى ... إنها عظيمة ... عظيمة ... كعظمة
الاطفال ...

... لقد شفيت الفتاة .. شفيت الفتاة .. لكن شيخنا نظنه قد جن ..
فيا لحسارتنا ... جن شيخنا ...

نظرت اليهم طويلا ... طويلا . فرأيت دم طفلى العظيمة يهدر .. رأيتـه
يسيل أمامهم من أجل كنز دفين فبكيت ...

بكيت طويلا... طويلا... فرأيت المرأة التى ولدت وردة حمراء تضم وليدها
الى صدرها . أخذته منها وقبلته فسمعت الجماعة يصيحون ... أهلكتنا يا
شيخنا ... الدم الذى كنت تذرفه من عينيك أغرقنا ... فالطف بنا يا شيخنا..
الطف بنا يا شيخنا ..

حاولت أن أكف عن البكاء فلم أستطع . فحملت الام ووردتها التى ولدتها
على عنقى . ثم صعدت سفح الجبل . هناك مدت الوردة «الرضيعة» راحتها الى
مقلتى تمسحهما فكففت عن البكاء . لكن كان ذلك بعد أن غرق كل السكان
فى بحر دمانى ...

يوسف عبد العاطي

9 و 10 أبريل 1982

نظار ب. نظاريان

الأجر الأول

خطوط من الدهشة ترسم على جبين والدى .. يرتفع حاجباه .. عيناه تحدقان فى وجهى باستغراب وتساؤل .

– ماذا أيضا . لماذا عدت مبكرا من المدرسة .

دفقة من الثقة بالنفس تهاجم كيانى ، وسيل من شجاعة مفاجئة يجرى فى عروقى من أخصص قدمى حتى قمة رأسى .

أجيبه بفخار ونشوة :

– لقد أضربنا .

واسكت .. يشتد تحديق نظرات والدى فى وجهى بين مصدق ومكذب ، حتى أجدنى عاجزا عن مواجهة هذه النظرات المملوءة بالاستنكار والتأنيب . أحنى رأسى مما يشجع والدى لإعادة سؤاله :

– ما هذا ، أفى كل أسبوع إضراب ؟ ومتى ستتعلمون ؟ ولماذا تذهبون الى المدرسة !!!

ثم يضيف بعصبية :

– وما سبب الاضراب هذه المرة .

سبب الاضراب ، أجل ، يشجعنى سبب الاضراب لأرفع رأسى مستعيدا ثقتى بنفسى وأجيب :

– لقد أضربنا – يا بابا – ضد الاحتلال الاجنبى لوطننا .. نريد لهم أن يرحلوا عن بلدنا .. نريد الحرية والاستقلال .

بسمه من إشراقة نور تلف وجه أبى . تنقش غيمة الغضب عن محياه .

وتعود خطوط الارتياح الى جبينه .. بسرور خفي يهز رأسه .. أشعر بالاطمئنان .. تعود الى فؤادى نسمات من قوة الارادة والعزيمة .. أحاول شرح الاسباب أكثر فأكثر ، وأنه من حقنا ٠٠٠ لكنه يربت على كتفى دون أن يترك لى مجالا للشرح والتفسير ، معربا بضربات يده الخفيفة عن رضاه وتفهمه ، يقول :

– هكذا أريدك يا ولدى . يجب أن نكافح ضد الاحتلال الاجنبى جميعا ، حتى نرى علم وطننا يرفرف فوق رؤوسنا .

ما نكاد – أنا ووالدى – نتفهم الموقف حتى تدخل أمى ، وهى تتساءل بدهشة عن وجودى المبكر فى البيت . تبدى أمى تدمرها بتقطيب حاجبيها ، وتقلص أسارير محياها ، لكنها تهدأ نوعا ما بعد أن تعلم من والدى عن سبب وجودى وسبب الاضراب . أمى تتذمر من كثرة اضراباتنا فى هذه الايام .. أمى تشكو من بقائى فى البيت بقربها لانى ازعجها بالأعيبى ، باخلالى لنظام البيت . أجلب لها الشجار مع أولاد الجيران فى الحى . واذا لعبنا فى داخل البيت ، أنا واخوتى ، فأتنا نقلب البيت رأسا على عقب ، ننثر قصاصات الورق هنا وهناك ، فى أطراف الغرفة النظيفة . ماذا أفعل ، أين تريدوننا أن نلعب ، ليست لنا الا غرفة واحدة ونحن عائلة من عشرة أشخاص .

أمى كسائر الامهات اللواتى يرتحن الى وجود أطفالهن فى المدرسة . أنا أشعر أن أمى تحببني حتى العبادة ، ولكنها تحتار فى أمرى كلما اقتربت العطل المدرسية . وأكثر من ذلك عندما أعود الى البيت بسبب الاضرابات فلا تغيب عنى محاولاتها فى البحث عن وسائل تشغلنى بها عن جلب المشاكل لها مع أولاد الجيران ، أو الجيران فى الحارة .

يقول لها والدى ، عندما يلمح غيمة الاهتمام تلف ملامحها ، ويرى الانزعاج باديا على وجهها :

– يا ستي لا تنشغلى بالولد ، فسوف آخذه هذه المرة معى الى الفرن . والدى يعمل فى الفرن القريب من منزلنا فى السوق الجديدة . ما ألد ما يجلبه لنا من قطع الحبز الابيض بين الحين والآخر . هذا الحبز يصنع خصيصا من أجل الجنود الاجانب والاغنياء فقط . نحن ليس باستطاعتنا شراء شئ من هذا

الحبز . كم هم سعداء ، إنهم يأكلون كل يوم من هذا الحبز الابيض . أنا كثيرا ما - والسر بيننا - أألف الحبز الابيض بالحبز الاسود ، جاعلا منه (الادامة) وآكله بشهية لا توصف . آكله سرا ، لاننى أخجل من أن يرانى أحد . اما تلك الحلويات التى تسمى « كاتو » فأنا لم أذوقها بعد .

فى الصبحيات ترش أمى شيئا من النعناع اليابس المزوج بالبح وزهرة السمأف فى الحبز الاسود ليكون لى أأذ أكلة . أمى تقول :

- هذه أكلة الوزراء . اووو ... يا لها من أكلة لذيدة تفتح شهيتى لشرب كثير من الماء .

يقول والدى واضعا يده على كتفى :

- اسمع يا بني ، غدا تستيقظ معى باكرا لأأخذك الى العمل معى فى الفرن . لا أريدك أن تضيع وقتك سدى بعد الآن فى اللعب فى الازقة أو فى الشوارع . ولا بد لك أن تتذوق شيئا من « الكاتو » والحبز الابيض بين الحين والحين .

أحاسيس السرور تتصاعد حتى وجنتى ، كفتى عاشق ، عندما اسمع اسم « الكاتو » والحبز الابيض . وفورا تقفز الى ذهنى فكرة التخلص من الانتظار الطويل امام الافران للحصول على الحبز الاسود .

فى اليوم الثانى استيقظ فرحا مسرورا مع والدى ، وكأنى أشم رائحة الحلويات . نذهب الى الفرن . نحى صاحبه - المعلم - ثم يكلمه والدى عنى ، فيبدي المعلم رضاه بعد ان يضع يده على رأسى مداعبا وهو يسألنى :

- لا بد أنك تلميذ مجتهد . أرى ذلك فى بريق عينيك ، ثم يضيف قائلا :

- فى أى صف أنت . أجيبه :

- فى الصف الثالث . ثم يرشدنى الى غرفة جانبية فى الفرن وهو يقول :

- خذ خفاقة البيض هذه ، واكسر فى كل مرة ثلاثين بيضة فى هذه الطنجرة ، وحرك بيدك خافقا حتى يصبح السائل مائلا الى البياض .

أبدأ العمل بخفة ونشاط . أعود عند المساء الى البيت مع والدى ورائحة « الكاتو » تملأ خياشيمي دون أن أتذوق منها . يصعب علي الاستيقاظ باكرا فى اليوم التالى . أشعر بالتعب يسرى فى عروقى سريان السم فى الجسم . لقد تعبت البارحة ، لكننى لا أجرؤ على جرح كرامتى بابداء الشكوى بالتعب أمام والدى أو أمى . أعمل عشر ساعات مثل والدى ، وأسرق الراحة بين الحين والحين عندما أنفرد بنفسى فى الغرفة . والدى مشغول بعمله أمام بيت النار ، فليس لديه وقت ليسأل عنى وعن أحوالى ، وأنا أحرك خفاقة البيض بشكل مستمر . وكلما تعبت منى يد نقلت الخفاقة الى اليد الاخرى . ومع ذلك أستمر فى عملى محاولا الجد والنشاط ، بينما قطع « الكاتو » تتراقص أمام عينى ، ويسيل لعابى بعد اخراجها من الفرن آه ... كم اشتهى التهام قطعة منها . ما طعمها يا ترى ، وهى ساخنة . لا بد أن والدى لاحظ تعففى واشتهائى . فذات يوم ، عندما كان يكلم المعلم فى غرفتى ، تناول قطعة من « الكاتو » وناولنى إياها ، وهو يطلق فى وجه المعلم مثلاً شعبياً ، كأنه يريد به أن يعتب وهو يقول :

– لا يربطون فم الثور الذى يعمل على النورج .

ألتهم قطعة « الكاتو » بشهية ولذة ، بعد أن أتأمل أطرافها مليا مسحورا برائحة جوز الهند الزكية شاكرا والدى والمعلم .

أستمر فى عملى أسبوعا كاملا . ولاول مرة أشعر بالتعب بل الى درجة الانهاك ، وأشعر الى جانب ذلك بما يتحملة والدى من الشقاء والعذاب من أجل لقمة عيشنا . ما أصعب أن يكسب الانسان معيشته بعرق جبينه .

فى الأمسيات عندما ننصرف من العمل أعود الى الدار مع والدى منهوك الجسم منهار القوى . ربما كانت أمى تلاحظ ذلك . غدوت هادئا فى حركاتى وسكناتى ، فلا نكاد نتناول عشاءنا المكون من الخبز الاسود وحببات الزيتون أو من حساء الحب المقشور ، الى جانب سلطة الخل الممزوج بالزيت والثوم حتى أشعر بالنوم يداعب أجفانى ويدغدغ أعصابى فأركن الى طرف ما للرقاد .

لم أعد أذهب الى بيت ابنة خالى للاستماع الى الراديو ، الى اخبار الحرب . أحيانا ، فى الامسيات ، كنت أسأل رفاقى فى المدرسة عن الاضراب وعن موعد عودة الدروس ، أو عن موعد رحيل المستعمرين عن وطننا .

مساء يوم نهاية الاسبوع ، أقف الى جانب والدى الذى يتناول أجرته الاسبوعية من المعلم . لا انسى ذلك المساء وتلك الحادثة الصغيرة بالنسبة الى غيرى ، والكبيرة بالنسبة الى . وتعود الآن تلك الذكرى من أعماق كهوف خيالى لتبعث من جديد . والذى ذلك الرجل الذى ما كان يعرف من القراءة سوى فك الكلمات ، ومن الحساب الا تقريش حساباته بأبسط الاشكال الكتابية الى جانب الذهنى منها ، لم أكن أعرف بما كان يتمتع به من التفهم الانسانى والروح الحرة ، واحترام الآخرين صغارا وكبارا .

أخذ والدى أجره ولكنه رفض أخذ أجرى ، عندما ناوله إياه المعلم مع أجره ، وقال له : - أرجو أن تعطى أجره له باليد ، فهو الذى تعب خلال الاسبوع ، لذلك يجب أن يشعر بلذة العمل عندما يأخذ أجره باليد . لا شئ يسعد العامل مثل قبض الاجر أو المكافأة بعد انتهاء عمله . انه سوف يعطينى إياه فى البيت ، وأنا بدورى أعمل ما يجب . كم عظم والدى فى نظرى وأنا أتناول أجرى من المعلم باعتزاز وفخر . لست أدري لماذا شعرت بالاعتزاز ، أمن أجل موقف والدى الذى أشعرنى بشخصيتى وعلمنى كيف تحفظ الكرامة الانسانية ، أم من أجل ... لا لا ، من أجل الاول فقط . كنت فرحا جدا بهذا الموقف الانسانى . وعندما عدت الى البيت رأيت والدى أنشر الابتسامات والسعادة حولى خلافا لعادتي فى الايام الاخيرة . تناولنا عشاءنا ثم التفتنا حول التنور المنزلى القديم . أخرجت من جيبى النصف الليرة وقدمتها لوالدى أمام انظار الجميع وأنا أقول :

- بابا تفضل هذه أجرتى الاسبوعية .

أخذ والدى المبلغ ووجهه يشرق بابتسامة الرضى والاطمئنان ، ثم أعاد المبلغ الى وهو يقول :

- خذ أجرك يا بني ، فلا بد أنك بحاجة لشراء الدفاتر والاقلام .

بعد أسبوعين انتهى الاضراب ، وهدأت الحالة بصورة مؤقتة ، فعدنا الى المدرسة ، وقبل بدء الدروس كان كل واحد منا يسأل الآخر عما فعله خلال الاسبوعين ، فكانت أجوبة كل واحد منهم لا تكاد تختلف عن الآخر . قسم

منهم قد أمضى وقته فى اللعب فى الحارة ، وقسم آخر قد التهى بمتابعة الالعب الرياضية بتسلىق حيطان الملعب والشجار مع الحراس ، وآخرون قالوا : إنهم لعبوا بالكعب فى المقبرة القريبة من المدرسة . ونادرا ما كنت اسمع من يقول إنه ساعد والده فى دكانه أو مخزنه أو فى البيت . ولكنى كنت أسألهم قائلا :

– من منكم كسب مالا بعرق جبينه ، من منكم اشتغل .
بينما أخرج من جيبى الليرة السورية بكل اعتزاز وتفاخر :

– انظروا ، انظروا . إننى لم أضيع وقتى سدى . لقد اشتغلت عاملا مع والدى فى القرن وكسبت هذا المبلغ ، إنه أول أجر لى .

ثم أضع المبلغ فى جيبى تحت انظار إعجاب البعض وحسد الآخرين .

نظار نظاريان

– حلب 1982 –

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

عندما يتسم الحظ

كانت القرية هادئة يخيم عليها السكون . ولا يشق ذلك السكون الا نقيق الضفادع ، وزقزقة العصافير عند تباشير الصباح ؛ فقد حجب عمود الفجر سحابة كثيفة سوداء ، وكان المطر ينزل رذاذا حين جنح شاب أسمر اللون نحيف الجسم ربع القامة باحثا عن جملة الذي انطلق من عقاله في تلك الليلة مقتفيا أثره . وبينما هو مار على العين اذ فوجيء بفتاة ملأت جرتها وأسندتها الى جذع نخلة . ثم تقدمت تغسل اطرافها مغتنمة خلو المكان جالسة على حافة العين كاشفة عن معصمها فظهرت محاسنها ووقف هو مبهورا يملأ النظر من ذلك الجمال الفاتن . وشعرت الفتاة بوجوده واقفا بالقرب منها فأسرعت بوضع جلبابها على رأسها وحملت جرتها وعادت الى القرية . اما الشاب فقد بقي واقفا يشيعها بنظرات حتى دخلت الدار التي لا تبعد كثيرا عن العين . وكان يعرف صاحب الدار فأدرك أنها ابنته التي اشتهرت بجمالها فقرر أن يتقدم الى خطبتها من والدها

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وقصد بدون تأخير والد الفتاة خاطبا راغبا فلم يرفض هذا الوالد طلبه فهو ابن العم معروف بين شباب القرية بالرصانة والجد والعمل الدائب . واذا كان قليل المال فالمال ظل زائل . وتمت الخطبة ووقع الزفاف لكن الزوجين متباينان في الطبيعة والاخلاق ؛ فالشاب كان رجلا هادئ الطبع سليم الطوية قانعا بما قدر له مكثفيا بدخله المحدود يشرب البان شهوياته في الربيع ، ويجعل من صوفها البرنس والحولى يقبانه الصر والحر . اما الزوجة فقد نشأت في عائلة ثرية تعيش عيشة ترف وقد رأت أنها لم تتزوج بكفء وأن والدها ظلمها حين زوجها بمن تشقى معه ولا تتمتع بما تتمتع به أترابها من بنات الثروة والجاه فهذه الحال جعلت منها امرأة حادة الطبع ناقمة على الحياة سليطة اللسان خاصة مع زوجها الذي تصرخ في وجهه لأتفه الاسباب .

وأمرت السماء بعد قحط وصارت العشيبة تنهياً للرحيل الى المربع في الصحراء . وهنا فكر في أمره . وكيف يمكن أن يضعن مع بقية عشيرته .

وظهرت له فكرة فدخل على زوجته فوجدها واجمة عابسة الوجه مطرقة الرأس، وابنائها الثلاثة منهم النائم على فراش من الرمل وغطاؤه سقف البيت ومنهم الجالس يطلب قوتا ومنهم الصغير الذى جف ثدي أمه فصار يصرخ طالبا ما يقتات به .

وأمام هذا المشهد وقف الأب جامدا محتارا فى أمره . ولم يتجسراً على مخاطبة زوجته فهزت رأسها وقالت له :

– كأنك تريد أن تكلمنى .

– نعم أريد أن استشيرك فى أمر .

– تكلم فأنا مصغية اليك .

– رأيت أن تذهبنى لأخيك ليعيرك جملا لنرحل عليه مع بقية العشيرة .

فارسلت ضحكة باهتة . ثم زوت ما بين عينيها وزمجرت كاللبوة :

– أنا أذهب الى أخى لاستعطافه كى يعيرنى جملا . هذا لا يكون .

ثم تساقطت الدموع من عينيها ولازمت الصمت فسكت مطاطاً الرأس مفكرا ثم رفع رأسه وقال :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

– إن كانت الحالة كما ترين فلا يمكن لنا ان نبقى هنا اذ من الاحسن أن نرحل الى المدينة ، لان المدن تستتر بين طياتها عيوب الناس . ولعاي أجد عملا هناك يعيننى على صروف الدهر .

– هذا ممكن حتى أنا لا أحب أن أبقى فى قريتى على هذه الحالة يجب أن نذهب حالا ولا تطلع علينا شمس الغد الا ونحن فى احدى المدن .

– لكن على أى شىء نرحل .

– هذا سهل نذهب الى فلان ليعيرك جملا نسافر عليه وترجعه غدا فهو على كل ليس من الاقارب ولا الشامتين .

ونفذ الرجل الامر حالا . وبعد مغيب الشمس حملا أدبашهما وأولادهما واتجها نحو المدينة وقد سارا طول الطريق صامتين تقطع الحيرة قلبيهما . وعند طلوع الفجر وصلا الى المدينة واستراحا قليلا عند مدخلها وقد اخذتهما سنة وما استفاقا الا على صوت المؤذن – الله أكبر – فأيقظ الرجل الزوجة

وواصل سيرهما ودخلا البلاد غبشة الفجر حتى لا يلتفتا نظر الفضوليين ليتساءلوا عن سبب مجيئهما فى ذلك الوقت وأناخ الجمل أمام الدار التى يقصدانها وسمع صاحب الدار رغاء الجمل فخرج مسرعا وفتح الباب مرحب بهما :

– تفضل تفضلى يا أخت أراك تعبت من السفر ادخلى .. الدار دارك . إن زوجك فى مقام أخى .

كما رحبت عائلة صاحب المحل بهما وهناك احست الزوجة ببعض الراحة والاطمئنان لما لقيته من حسن استقبال . وأخذ الضيفان غرفة فى الدار ووضعها فيها أدبائهما واطمئنا الى الحياة الجديدة بعد أن وجد عملا يعمل فيه طوال يومه كاسب قوت عائلته وقد تحسنت حاله جزئيا .

وذات يوم حدثت بين الزوجين مناوشة من أجل أمر تافه . ورأى الزوج أنه يعيش مع زوجة نافرة وأنها لا تستحى أن تهينه أمام الاجوار . وأطرق يفكر فى حاله وفى حظه التعيس . الفقر والغربة تضاف اليهما زوجة نافرة تسمعه كل يوم أنواعا من بدىء القول وتسلط عليه أنواع الظلم والقهر . ياله من حظ تعس ظلم الدهر وظلم البشر . وفكر فى الفرار . وقرر فى نفسه أن يخرج ولن يعود الى الابد فوقف صامتا يفكر ويحملك بعينه فى أركان البيت ونظر الى أبنائه الصغار فانحدرت من عينيه دموعان بللتا وجنتيه . ثم التفت يمينا وشمالا . وأخذ مخلاته ليجعل فيها ما يحتاج اليه فى سفره الذى لا يعرف مداه . ثم اقترب من ابنائه وودعهم وداع الياس ولم يتمالك أن سالت دموعه فى صمت فمسحهما بمنديل .. ثم خرج وقد مالت الشمس الى الغروب مرسله أشعتها الصفراء على الكشبان الرملية والواحات . ووقف هنيهة فوق ربوة ثم سرح نظره فى تلك المناظر الطبيعية التى ترعرع بين أحضانها فنزل وتوسد مخلاته وافترش إزاره ولكن النوم لم يطرق أجفانه طوال الليل لما اعتراه من السهر . حتى بعث السحر فى نفسه بعض الانتعاش فهدأ روعه . وأغمض عينيه يغط فى نوم عميق لم توقظه الا حرارة الشمس فى صباح الغد فقام مذعورا وسلك الطريق الى الشمال وجد فى السير حتى قطع المسافة التى تفصل بين المدينة والجبل وقد أنهكه التعب طيلة هذين اليومين ، وعندما بلغت الشمس عنان السماء واشتد الحر ، مال الى كهف ليقضى فيه

القيلولة كى يستأنف سيره فى العشي . ودخل الكهف وسوى فيه مكانا ثم استلقى على ظهره . ولما بدأ يحس ببرود الظل التقطت اذناه صوت فحيح أفعى زاحفة من جحرها فى ذلك الكهف فأخذ عصاه ليقفلها فأسرعت بالرجوع الى الجحر . وهناك بقى متحيرا بين البقاء فى الكهف وبين الخروج الى حرارة الرمضاء . وأخيرا أخذ متاعه وخرج وقال :

- أبقي أيتها الافعى فى كهفك لقد أخرجتنى أفعى أخرى قبلك من البشر من عقر دارى ومسقط رأسى . نعم أخرجتنى من جنتى كما أخرجت حواء آدم من جنته ..

ثم آوى الى سدره كانت قريبة من الكهف فدس تحت أغصانها نصفه وبقي نصفه الآخر تحرقه الشمس . وكلما رفع رأسه وخزه الشوك وبقي بعض الوقت حتى استراح قليلا وضعف حر الشمس فاستأنف سيره الى ان جن الظلام وتعالى من حوله عواء الذئاب فأنس نارا تضىء من بعيد وسمع نباح الكلاب فحول وجهه سيره نحوها عساه يجد ركنا أو بشرا يأنس به ولم يهتد الى طريق يسلكه فى ذلك الظلام الحالك بل صار يسير على غير هدى . وكانت الارض مغطاة بالهشيم فتارة تقع رجلاه فى حفرة فيقع على وجهه وتارة ترتطم بحجرة فتدمى أقدامه ولم يصل ذلك الحى حتى ذاق من العذاب ألوانا ووقف أمام الحى فنبخته الكلاب وانتظر حتى خرج اليه شاب وسأله :

- من أنت ؟

- أنا ضيف ربى عابر السبيل رأيت ضوء ناركم فأتيت لاستأنس بكم أستأنف سيرى فى الصباح .

فبقى الشاب يتفرس فيه وكأنما يظن أنه لص ولما نظر الى سحته ولباسه ورآه يرتدى قميصا بدون جيب (رقبة) تصل أكمامه الى الرسغ وشاشية تغطى أذنيه أسمر البشرة تعلو وجهه الكآبة والحزن قال له :

- من أنت يا عم ؟

- عربى منكم .

- تفضل .

ودخل فوجد شيخا جالسا على زربية .

فقال الشاب :

- يا ولدى هذا ضيف .

- يا مرحبا .. يا مرحبا .. تفضل . تفضل .

تقدم الضيف وجلس حذو الشيخ وبقي واجما :

- مالى أراك كئيبا اعتبر نفسك فى بيتك وعشيرتك انكم منا والينا .

ثم قدم له العشاء وأخرج له بساطا فنام نوما هنيئا . وفى الصباح استأنف سيره . وسار يقطع الفيافي ويطلق الاحياء الى أن وصل الى الحدود الجزائرية فاجتازها . وقد بدلت الارض غير الارض وتبدلت سحنات البشر واللهجات فطرق حيا كعادته ولما وصله أحاط به سكانه وأخذوا يتفرسون فيه فبقى مبهوتا وأخيرا نطق :

- أنا ضيف .

فأحاط به بعض الشبان يقهقهون ويسخرون منه فجاء شيخ وقور وقال :

- ما أنتم والرجل .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فأتاه الشيخ ورحب به وقال الشيخ فى نفسه : « هذا رجل من الجنوب التونسي الذين عرفت صدق نيتهم وطيب نفوسهم وكرم أخلاقهم » .

وفكر فى استخدامه فهو فى حاجة الى شاب مخلص نشيط يساعده على حفظ أرزاقه الكثيرة فقال له :

- يا ولدى قد توسمنا فيك الخير . وأنا رجل قد بلغت من الكبر عتيا .

وأولادى صغار ولى ثروة من الابل والغنم فهل لك أن تبقى معي وترعى لى الغنم وتحفظ أرزاقى فعسى أن يكون لك خير فى ذلك .

فأجابه الشاب :

- اتفقنا على بركة الله .

وبقي معه يعمل بصدق وإخلاص وقد أحبه الشيخ وكثرت أغنامه على يديه ففكر أن يزوجه ابنته ويجعله ابنه الاكبر فقبل بعد تردد . وصار شأنه يعلو

وحظه يبتسم في الثروة والجاه وأنجبت له زوجته ولدا فتذكر أبناءه فسمى ابنه الجديد باسم ابنه الأكبر . وا تقدمت به السن وأحس بدنو أجله نادى ابنه وروى له قصته وسبب نزوحه من مسقط رأسه كما أشار عليه أن يبيع ممتلكاته ويوغل داخل التراب الجزائري حتى لا يتفطن الناس أنه غريب عن القبيلة .

عمل الولد بوصية أبيه وتبدلت الاحوال وبقي الابن الجزائري مرفوع الرأس من الذوات المرموقة وأنجب أولادا واعتنى بتعليمهم . وشاءت الاقدار ان يكون أحد ابنائه يعمل برتبة ملازم أول بالجيش الفرنسي وعين على رأس كتيبة للذهاب الى تونس لقمع الثورة التحريرية بها . وفي أحد الايام نصبوا كميناً للثوار فوقع أحد افرادهم فيه فاستنطقوه فلما تحصلوا على ايضاحات قال الضابط الفرنسي أحيلوه على الملازم فلان . وعندما سأل هذا الاخير عن اسمه أجاب بأنه فلان ابن فلان ويلقب بكذا فاستغرب هذا الاسم واللقب حيث انهما يحملان نفس الهوية حتى أحس الملازم الجزائري بأن الشئ يسخر منه فانكر عليه ذلك لكنه أقسم إنها الحقيقة فطلب منه ما يثبت ذلك فاستظهر هذا الاخير بتعريفه وعند ذلك قال الملازم :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- أنا أيضا أحمل نفس الاسم واللقب .

فاستفسره عن الحكاية فأجابه بما يعلم عن قصة جده الذي نزح الى الجزائر والعائلة التي تركها هناك في تونس والحديث الذي تتداوله العائلة بأن جده ترك أولادا بالتراب التونسي . وتحدث الثائر بما يعلم عن انقطاع أخبار جده وأدرك الاثنان أنهما من دم واحد ووطن واحد هناك اتفقا على الفرار من الجيش الفرنسي والعمل في صفوف الوطنيين . وأصبح الضابط الفرنسي فلم يجد أثرا للثائر المقبوض عليه ولا للملازم الذي كلف ببحثه واستنطاقه .

محمد الهادي الفطناسي

نواح يتيمة

ليس ما سأسرده عليكم الآن محض خيال ، أو حلم من أحلام الليالي الهادئة ، بل هو واقع وحقيقة ، أرسم من خلاله دموع بنت يتيمة يائسة .

لقد عدت أدراجي من بيت عمي ، بعد قضاء ليلة حزينة بجانب رفيقة وحيدة والديها ، مع شقيقها الذي يعيش في بلاد الغرب ...

وقد كان أبوها هو كل شيء في حياتها ، لأنها فتاة عاجزة عن الصمود أمام مصاعب الحياة بمفردها ، باعتبارها فتاة ضعيفة النفس والمؤهلات المعنوية منها والمادية . ولذلك كان أبوها يمثل كل شيء في حياتها ، وإن هذه الاحداث تمثل اللمسات الواقعية لمأساة بشرية ، تحملت أعباءها هذه الفتاة الضعيفة . ولكن ما كل ما يتمنى المرؤ يدركه ...

كانت تنوح وتنادي : « أبي ... أبي ، لمن سأنادي أبي ؟ هل تسمعني يا أبي ؟ ... ! يا ليتني مت أنا عوضه ، ثم تستدرك : « أستغفر الله » ...

نادتني وكأنها تستنجد بي مستغيثة : « آه غير الزلة والغربة ، لقد انتهى وتركني وحيدة ، بعدما فقدت أمي رفيقة عمري .. آه يا ابنة عمي لقد انتهى وانتهى وجوده في هذا البيت ... ، ذهب ومعه صوته الرنان الذي يناديني من أعماق البيت : « أين أنت يا رفيقة ؟ ... هات القهوة يا رفيقة ... أين السجادة يا رفيقة ؟ ... احضري حالا يا رفيقة ! ... ! » .

اقتربت منها ووضعت يدي على كتفها لأهدئ من روعها وهي تنتحب ولا تنفك تصرخ بأعلى صوتها منادية أباهما الراحل .

لم أقدر على الكلام ، لقد خنقتني عبراتي وكل من في البيت يرثيه ويرثي لحالها .

نظرت في وجهي ، وكأنها تحدثني : « إنه ينتظر زفاف أخى العائد من المانيا على أحر من الجمر وقد وعدني بأن يشتري لي أفخر الثياب ، فهو كثيرا ما يرآف لحالي ويعطف علي ، فمن الذي سيهبنني هذا الحب ؟ من ؟ رباه !! إن لوعة الفراق تعرقني وبعده عنى يزيدني لوعة ، لو الحق به ! رباه ... !

فأجابتها امرأة بجانبها : « روحى عن نفسك قليلا ، واصبرى ، سوف يأتى أخوك ويحفظك ويحميك .

فأجابتها مرتاعة : « نعم ... نعم ، ولكنه سيتزوج وسوف أكون عالة عليه ، وحملًا ثقيلا على زوجته وسوف ينفر منى فى يوم ما ...! وأنا فتاة مريضة ولن يتزوجنى أحد ، سأبقى وحيدة وغريبة فى بيتنا هذا ...! . قلت : « لا تخافى يا رفيقة ، إن لك عائلة كبيرة وأنا سا يحبونك ويعطفون عليك ، سوف لن يتركوك وحيدة ولا غريبة » .

قالت : « ولكن أبى يا ابنة عمى كيف يمكن لى أن أنساه ... إنه يحبنى كثيرا ويأسى يؤذنين ويسىء الى ، إنه يضحى من أجلى ، ويلبى كل طلباتى ، كنت لا أفارقه عندما يدخل الى البيت ، فهو يسلىنى ، وكثيرا ما يروى لى حكايات ترفهنى ، وتبعد عني الأسى ومرارة اليأس ، فهو لا يطيق أن يرانى حزينة فكيف أنساه ...؟ كيف يا ترى ...؟ ثم تصرخ بأعلى صوتها : « أبى ...! آه من لوعة الفراق يا أبى » وتبكى ما شاء لها أن تبكى ، حتى تكل ويتعب صوتها ، فتدنومنى كأنها تطلب الحماية فأعانقها ، وتختلط دموعنا فى هدوء وروعة ، وتمتلئ للسكون مدة رهيبه ، ثم ترفع رأسها بقوة من بين كتفى ، وكأنها تستفيق من حلم مرعج ، وتضرب على ساقىها بكفيها وتصيح متأهوه كالمثوهة : « لقد رحل عني أعز ما أملك فى هذه الدنيا ... لقد رحل يا إخوانى فاعذرونى إن لم أصبر على فقدانه ، لقد رحل ليلتحق بأبى ...! لا يمكن لأحد من الحاضرين أن يحدوها عن نداءاتها ونواحها هذا فهي كالمريضة بالحمى تتكلم جزافا وهى لا تعي ما تقول وعبرات الأسى تخرج من فمها متناثرة مؤلمة تمزق القلوب وبقيت على تلك الحالة الى يوم الغد ، .. وبعد أن تمت عمليات الغسل والتطهير ، وسدل الستار الأبيض ارتمت رفيقة على والدها تقبله بحرارة ومرارة ، وتعانقه كأنها تأمل عودته . فمنعها أحد الحاضرين قائلا : « كفى عن ذلك يا رفيقة ، فالموت سبيل لا بد منه وكل نفس ذائقة الموت ... » فلم تبال وواصلت نحبها وصياحها ونواحها ، وهى على تلك الحالة الى أن أخرجوه ، وظلت تهرول وراءه وتردد : « خذونى معه ...! خذونى معه ...! » .

آسيا يمن

- بنزرت -

حيرة

كان المدخل يوحى باطمئنان ، وكان عدد من الرجال متحلقين حول طاولة يقضون الاحاديث المتناثرة ، ويشربون الشاي ، عندما دخلت لاهثا محملا يمينه ويسرة ، باحثا عن اللوحة الملعونة « مملوء » ، ولشد ما كانت راحتى كبيرة عندما علمت ان هناك غرفة :

- فى الطابق الاول .

- لا بأس ، ليكن فى أى طابق .. المهم أن لديكم غرفة ..

- ولها شرفة تطل على الشارع .

- لا بأس ، لا بأس .

- وليس فيها حمام .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وخطفت المفتاح الصدى من يده المروقة الحشنة بعد أن أنزله من لوحة عتيقة ، ورحت أقفز على الدرج قفزا .. لم ألاحظ جيدا الدرج المرمى المهترى ... ولم ألاحظ ملامح النظافة التى توحى بالاطمئنان شيئا ما .

كانت حقيبتي ثقيلة . وكان صدرى وجبهتى يتصببان بالعرق ، تفوح منهما رائحة مزعجة كلما جذبت قميصى ودسست أنفى منه ..

ألقيت الحقيبة فى وسط الغرفة .. ثم ارتيمت على السرير العريض منهكا ، بعد أن كنت قضيت نصف نهار وأنا أصعد الفنادق لاهثا ، باحثا عن مكان .. عن سرير .. لكن الوجوه كانت تجيب بجفاء وبغمة واحدة :

- ألم تقرأ اللوحة خلف الباب ... إنه « مملوء » .

- نعم يا سيدى .. قرأتها .. ولكن هل صار محالا أن يحصل الانسان على غرفة فى بلدكم .

- لا تنس أنك فى موسم السياحة يا أستاذ .

لم تلهنى قهقهات النور التى كانت تغسل الشوارع ، ولا سيقان الصبايا السائحات عندما عرينها للصيف المحرق ، انها فاتنة حقا ، ولكن أنى لهذا القلب أن يفهم ، أو يحس . كنت أود أن استريح .. أبحث عن مكان أمد فيه رجلى وأتنهد .. لفظتنى الفنادق ، ورفضنى كل الناس ، فلم لا أجلس على الأرض ليقولوا : إنه شحاذ ، وعندئذ سأصرخ فى وجوههم :

- ابحثوا لى عن مكان أرقد فيه .. لقد مللت البحث ..
كأسها ينعكس على غطاء السرير فيزيده نصاعة ، الحيطان أشبه بامرأة تجاوزت الثمانين ، فطلت وجهها بالمساحيق .. وكانت الشرفة تطل على كانت الغرفة واسعة بعض الشيء .. وكانت الحيطان شبه مهترئة ، بياض شارع ضيق تكاد تتلاصق جدرانها .. تنيره مصابيح خافتة .. تفوح منها رائحة الشواء المختلطة بأصوات الباعة ، التى تصفع وجوه المارين .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كانت الغرفة واسعة بعض الشيء ..
نهضت الى المغسلة .. أخذت قطعة من الاسفنج كانت ملقاة على جانبها ، ورحت أدلك بها صدرى ووجهى ويدي .. الماء بارد جدا .. تنفست الصعداء .. وبدلت ثيابى وخرجت ..

« لن أنام منذ الآن ، سأخرج لأتسكع هنا وهناك ، سأنعم بساعة من نهار قضيته كآلة ضاعت فراملها .. »

كراسى المقهى ملقاة على الرصيف العريض من دون نظام ، وباعة اللوز والورود يتجولون بين الحسان .. يعرضون بضاعتهم عليهن « آه ألا ليتنى وردة أقدم الى إحداهن » وخطر لى خاطر : « لم لا أكون لوزة » وضحكت وحدى حتى قهقهت ..

كان الرجل السمين يغفو على كرسيه غفوات ، وعندما دخلت .. وتمهل .. بل توقفت عند الباب أرقب عينيه المغمضتين ، ورأسه الذى يرتخى فيميل الى

الأمام قليلا ، ثم ينفلت مرة واحدة ، كأنه بطيخة وضعت على جرف ، فيفتي الرجل عينيه على الفور .. ثم يعود الى جلسنته ، ليغض من جديد .. ضربت الارض بكعب حذائي .. تنحنحت .. ففتح الرجل عينيه .. ثم فركهما وكأنه لم يغف أبدا .. ابتسمت له وحييته .. فرد التحية . ثم مد يده الى لوحته بآلية .. وأنزل منها مفتاحا .. صعدت الدرج وأنا أرقبه بطرف عيني فاذا هو يرجع الى حالته التي كان فيها .

الحرارة شديدة قاتلة .. خلعت ملابسى ، لم أترك إلا ما يستر العورة .. ثم أطفأت النور ، وأسلمت نفسى الى نوم عميق .. فتحت عينا واحدة فلم أر إلا الظلام .. الظلام الذى يعانق حزما خفيفة من نور يندس من خلال الشرفة .. مددت يدي الى صدرى عابثا بشعراته المغموسة بالعرق المتصبب ، ثم مسحت جبھتي بحركة لا شعورية .. كان جسمى يتدفق بالعرق .. ويشكو من لسعات حادة فى ساعدى الايسر .. حككته بأظافرى بعنف .. شعرت بلذة عجيبة .. حككت بعنف أكثر .. فزادت اللذة ، واختلطت بشيء من الألم .. التهب جلدى .. تقلبت الى الجهة الاخرى .. نقلت أظافرى الى عنقى ثم الى ساعدى الايمن .. « أوه لقد زاد الامر عن الحد !! » ما ألد النوم « فتحت عيني ، ثم نهضت وشققت حجاب الظلام ، وأشعلت النور .. »

أطللت من النافذة فاذا الشارع هادئ تماما ، لولا عريضة سكران ، يسب الهواء ويقاتل الفراغ .. يغنى ثم يتقيا .. ثم يمسك بالجدار .. قشغلنى قليلا عما أنا فيه ، ثم رجعت الى السرير من جديد ..

« رباه ما العمل ؟ ما هذه الليلة ؟ هل أنزل الى صاحب الفندق لأوقفه وأشكو اليه ما أنا فيه ؟ هل أريه الاصابات فى جسدى من حيواناته التى يربىها لافتراس زبائنه البريئين ؟ ماذا سيقدم الى وكيف سيحيينى . سيقول : هذا فندقنا أيها الزبون العظيم !! بإمكانك أن تغادره منذ اللحظة إن أردت .. » تراجع حينذاك ، وجلست فوق السرير باحثا عن هذه الحيوانات الحبيشة لأنتقم منها ، بحثت عنها فى ثنايا الغطاء الابيض الرقيق .. قلبته بين يدي ، فوجدت « بقعة » صغيرة تتجه نحو المخدة تبحث عن لحم آدمي : « تعالى أيتها اللعينة .. لقد وقعت فى الشرك .. أين ستذهبين . »

قبضت عليها باصبعي .. وقطعت طرفا من جريدة ، طويته عليها ، ثم ضغطته بآلم وحقد ، فسمت صوتا رائعا ، انفتح له قلبي ، ولم أشعر كيف قلت : « لتذهبي الى الجحيم » .

البق يفزع من النور .. إذن فلاترك النور مشعولا .. أتلقب على السرير ، الضوء يتقد بقوة .. يتحدى البق .. يتحداني أنا .. حاولت إغماض عيني فلم أفلح .. غطيت وجهي بالغطاء الابيض .. لكنني لم أصبر .. نهضت من جديد ، تلفت حولى .. خرجت الى الشرفة .. ثم عدت من جديد .. لقد خطرت لى فكرة ذكية .. انفتلت الى المنشفة بسرعة ، ولففت بها المصباح .. تأملت أركان الغرفة ، فاذا الجو شاعري حالم .. إنه ليس بالنور الذى يقلق ، ولا بالظلام الذى يطعم البق فى جسدى .. ورميت نفسى على السرير من جديد .. كسى استسلم لنوم عميق لذيذ .

لم أدر كم مضى من الوقت على التحديد .. ولكن الذى أذكره أن نور الفجر كان يمتد الى الشرفة عندما أصابنى سعال شديد كاد يقطع على تنفسى .. المنشفة كانت قطعة من جمر .. تنسل قطع منها ملتتهبة فوق المغسلة ، فتبدد ظلام الغرفة .. ما أروع ذاك المنظر !! وفى لحظة صرخت كالمجنون ، واندفعت نحو المغسلة أصب الماء فوقها .. بدا المصباح عابسا ، تغطيه طبقة فحمية كثيفة ..

وما هى إلا لحظات حتى كنت لابسا ثيابى ، منتظرا ظهور الفجر . ثم حملت حقيبتى وأدرت المفتاح دورتين خلفى .. ودفعت الاجرة لصاحبنا .. وحثت الحطى الى الشارع غير ملتفت الى الورا .

زهير العلاف